
الإسلام ديننا
دُروس في السيرة
الأول الثانوي
لجنة المناهج
١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ مـ





المحتويات

مقدمة لجنة المناهج

بسم الله الرحمن الرحيم

نظـرًا للحاجة العاجلة إلى مناهج تُلبّـي متطلبات مشاريع التعليم الدينـي الإسلامي لجميع المراحل -ابتدائـي، إعـدادي، ثانوي- وفق خطـة التعليم طوال السنـة وبمنهجية المراحل، وهـي حاجةٌ مُلِحَّةٌ لا تحتمـل التأخـير، ونظـرًا إلى أنَّ طبيعة العمل في إنجـاز كُتُبٍ دراسيَّة تُلبّي هـذه الحاجة بالصورة المطلوبـة، والتدقيق اللازم يأخذُ وقتًا طويلاً، فقد ارتـأت لجنة المناهج أن تقوم بإعداد هذه السلسلة بصـورة مؤقتـة، وبعجالة مـن أمرنا قمنا بجمع مـا توفَّر لنا من كُتُـبٍ تعليميَّةٍ وكرّاسـاتٍ من جهاتٍ موثوقـة، وقمنا بترتيبها وتقسيمها واختيار المناسـب منها، والتصرف في النصوص كثيرًا، مع إجراء مراجعة عامة للمحتوى.

فهذه المناهج المؤقتة مستفادة من عدَّةِ مصادر، وهي:

جميع المناهج المطبوعة للمجلس الإسلامي العلمائي في البحرين.

بعض مقرّرات مركز الهدى للدراسات الإسلامية.

بعض كرّاساتِ مشروع تعليم الصلاة والقرآن بقرية الدراز.

بعض مناهج جماعة الهُدى للتعليم في القطيف.

بعض إصدارات مركزِ المعارف للدراسات والبحوث الإسلامية.

تنويه مهم

يرجى من الأساتذة الكرام وإدارات التعليم الديني أن يتفضلوا بموافاتنا بملاحظاتهم واقتراحاتهم؛ لتعديل وتطوير هذه المناهج، وشكرًا.

١

الدرس الأول

الجزيرة العربيّة قبل الإسلام

الدرس الأوّل

الجزيرة العربيّة قبل الإسلام

أهداف الدرس:

١. أن يستطلع الطالب جغرافيّة شبه الجزيرة العربيّة.

٢. أن يُدرك مقوّمات العصر الجاهليّ.

٣. أن يُحدِّد ملامح الحياة السياسيّة في الجزيرة العربيّة قبل الإسلام.

الموقع الجغرافيّ والأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة

تقع شبه جزيرة العرب، والتي تُسمّى أيضاً "جزيرة العرب"، في الجنوب الغربيّ من قارّة آسيا، وهي أكبر شبه جزيرة في العالم.

ويحدُّها من الجنوب خليج عدن والمحيط الهنديّ وبحر عُمان، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق خليج عُمان والخليج الفارسيّ والعراق، وتُتاخمها من الشمال صحراء واسعة تنتهي بسهل الفرات. مناخها قاسٍ، وهواءها جافّ، وليس في طول البلاد وعرضها مياه - عدا الأقسام الجنوبية - ولا أنهار صالحة للملاحة فيها، والسبب في جفافها هو كونها محاطة بجدار جبليّ شاهق من ثلاث جهات[1]. وهذا الجدار هو الذي يصدّ رطوبة البحار ويمنعها من الوصول إلى هذه المنطقة.

أقسام الجزيرة الرئيسة

١. الوسطيّ الذي يُسمّى بالصحراء العربيّة.

٢. الشماليّ وهو ما يُعرف باسم الحجاز.

٣. الجنوبيّ الذي يُعرف باسم اليمن[2].

---

(١) تمتـدّ هـذه الجبال من شبه جزيرة سيناء في موازاة البحر الأحمر على شكل سلسلة كأنّها جدار عازل، ثمّ تلتفّ عند الزاوية الجنوبية الغربية، وتدور في موازاة الساحل الجنوبي والشرقي لجزيرة العرب.

(٢) قال المقدسيّ، وهو من العلماء المسلمين في القرن الرابع، إنّها تُقسم إلى أربعة أقسام كبرى، وهي: الحجاز، واليمن، وعُمان، وهجر أحسن التقاسيم، ص١٠٢، وقسّمها غيره إلى خمسة أقاليم.

ويتميّـز القسم الجنوبـيّ اليمن بكثرة هطول الأمطـار فيه، وكونه منطقة زراعيـة مزدهرة وتقطنها أعداد غفيرة من السكان. ولهذا لا تكاد تُقارَن بشمال ووسط جزيرة العرب؛ وهذا ما استدعى نشوء القـرى والمدن واجتماع الناس في هـذا القسم، ممّا أدّى إلى وجود أنظمـة وقوانين وإن كانت بدائية، ومـا يُلازِم ذلك مـن تأسيس الحكومات التي ظهرت في هذه المنطقـة قبل ولادة المسيح عليه السلام بمئات السنين، نذكر منها:

١. الدولة المعينية: ١٤٠٠ ـ ٨٥٠ قبل الميلاد.
٢. الدولة السبئية: ٨٥٠ ـ ١١٥ قبل الميلاد.
٣. دولة قتبان ٨٦٥ ـ ٥٤٠ قبل الميلاد.
٤. دولة حضرموت: ١٠٢٠ قبل الميلاد ـ ٦٥ بعد الميلاد.
٥. دولـة سبأ وريدان وحضرمـوت وأطراف اليمن، وكان يُسمّى ملوكها "تُبَّـع"، واستمرّ حكمها من عام ١١٥ قبل الميلاد إلى عام ٥٢٣ بعد الميلاد[٣].

وأثنـى المؤرّخـون كثيراً على الحضارة الزاهرة التي نشأت في اليمن، ووصفوا قصور سبأ بأنّها قصور نضـرة ذات أبواب مُرصَّعة بالجواهر، ومساكنها عامرة، وفيهـا أوانٍ من الفضّة والذهب، وفيها سدّ مأرب الذي انهار قبل أربعمائة سنة من ظهور الإسلام[٤] نتيجة إهمال من أمّة آخذة في الانحطاط. أدّى هـذا الخـراب والانحلال إلى مهاجرة عدد كبير من أهل اليمـن، وحدوث تحوّلات كبيرة في شبه جزيـرة العرب، حيث توجّه رهـط تنّوخ من قبيلة الأزد اليمانية إلى الحـيرة العراق، وتوجّه آل جفنة إلى الشـام، وسارت قبيلتـا الأوس والخزرج إلى يثرب المدينة المنوّرة، بينمـا توجّهت خزاعة إلى مكّة وما جاورها [٥].

---

(٣) شرف الدين، أحمد حسين،اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنّة المحمّديّة، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ، ص ٥٣.

(٤) الآلوسـي البغـدادي، محمود شكري، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتـب الحديثة، القاهرة، ط٢، ص٢٠٤. أشار القـرآن الكـريم إلى قوم سبأ في سورتين، إحداهما بمناسبة ذكر ملكة سبأ وكتاب النبيّ سليمان إليها في سورة النمل، الآيتان: ٢٢، ٢٣، وثانيهما بمناسبة ذكر الآثار الناتجة عن انهيار السدّ في سورة سبأ،الآيات: ١٥ ـ ١٩.

(٥) حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسيّ، ج ١، ص٤٤.

الجاهليّة والقبيلة

عُرف عصر ما قبل الإسلام في الجزيرة العربيّة بـ"العصر الجاهليّ". ورغم أنّ كلمة الجاهليّة مشتقّة من الجهل، إلّا أنّ الجهل هنا لا يقع في النقطة المقابلة للعلم، وإنّما يقع في النقطة المقابلة للعقل والمنطق، فهي تعني السفه والغضب والأنفة، وهي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام لِما كانوا عليه من مزيد جهل في كثير من الأعمال والأحكام [١]. فإطلاق كلمة جاهل على ذلك المجتمع يُعزى إلى رؤيتهم المغلوطة والبعيدة عن العقل والمنطق.

ويذهب بعض المؤرّخين إلى القول بأنّ تسمية الجاهليّة الأولى الواردة في القرآن الكريم يُراد منها الزمن الذي ولِد فيه النبيّ إبراهيم عليه السلام، وقيل: إنّها الفترة ما بين آدم ونوح عليهما السلام، وهي ثمانمائة سنة، في حين ذهب بعض المعاصرين للقول بأنّها الفترة ما بين عيسى عليه السلام ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الذي تنصرف إليه الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر أحكام الجاهليّة، وظنُّ الجاهليّة، وحميّة الجاهليّة، وتبرّج الجاهليّة الأولى [٢].

وكانت القبيلة هي الوحدة السياسيّة عند العرب في عصر ما قبل الإسلام، فأفراد القبيلة ينتمون أو يعتقدون أنّهم ينتمون إلى أصل واحد مشترك، تجمعهم وحدة الجماعة وتربطهم رابطة الدم والعصبيّة للأهل والعشيرة.

العصبيّة

العصبيّة عند العرب نوعان:

- عصبيّة الدم وهي أساس القرابة ومصدر الترابط.
- وعصبيّة الانتماء إلى أبٍ بعيد أو جدٍّ مشترك، من نسله تكوّنت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه.

وعلى هذا الأساس كان شعور العرب بالقوميّة الشاملة ضعيفاً، ذلك لأنّ وعيها السياسيّ كان ضعيفاً محدوداً لا يتجاوز القبيلة.

وهكذا كان المجتمع العربيّ قبل الإسلام مجتمعاً مفكّكاً سياسيّاً ينقسم إلى وحدات متعدّدة قائمة بذاتها، تُمثِّلها القبائل المختلفة.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، ط بولاق، ١٣٠٣هـ، ج١٣/ص١٣٦.

(٢) راجع سورة المائدة، الآية: ٥٠، وسورة آل عمران، الآية: ١٥٤، وسورة الفتح، الآية: ٢٦، وسورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

نُظم الحكم

كان لـكلّ قبيلـة مجلس من شيوخها، يرأسه رجـل يَتمُّ اختياره من بين أفـراد القبيلة، ويُطلقون عليه ألقابـاً منها: الرئيس والشيخ والأمير والسيّد، ويُشترط أن تتوفّر فيه بعض الصفات، منها: الشجاعة والحكمة والصبر والكرم وسعة النفوذ.

ويتولّى سيّد القبيلة واجبات، أهمّها:

قيـادة الجيش، وأمر المفاوضات مع القبائل الأخرى، وفضّ النزاعات، والحُكم في الخلافات، وإعانة الضعفـاء، والمحافظـة على وحـدة القبيلة. وكان مجلس القيـادة يعقد اجتماعاتـه في دار الندوة، أو المنتدى، حيث تُناقش الأمور والمسائل التي تخصّ القبيلة كإعلان الحرب، أو إقرار السلم.

خلاصة الكلام:

لم يكن يخضع عرب الحجاز قبل ظهور الإسلام لسلطة حكومة، ولم يكن لهم نُظُم ولا تشكيل سياسيّ، ولهذا السبب كانت حياتهم تختلف اختلافاً كليّاً عمّا كانت عليه حياة المجتمعات في بلاد فارس وبلاد الروم، حيث الحكومة المركزية التي تتولّى شؤون الناس في كلّ أرجاء البلاد، ولهذا كان العرب يشعرون بالضعف مقابل الفرس والروم.

مفاسد المجتمع العربيّ:

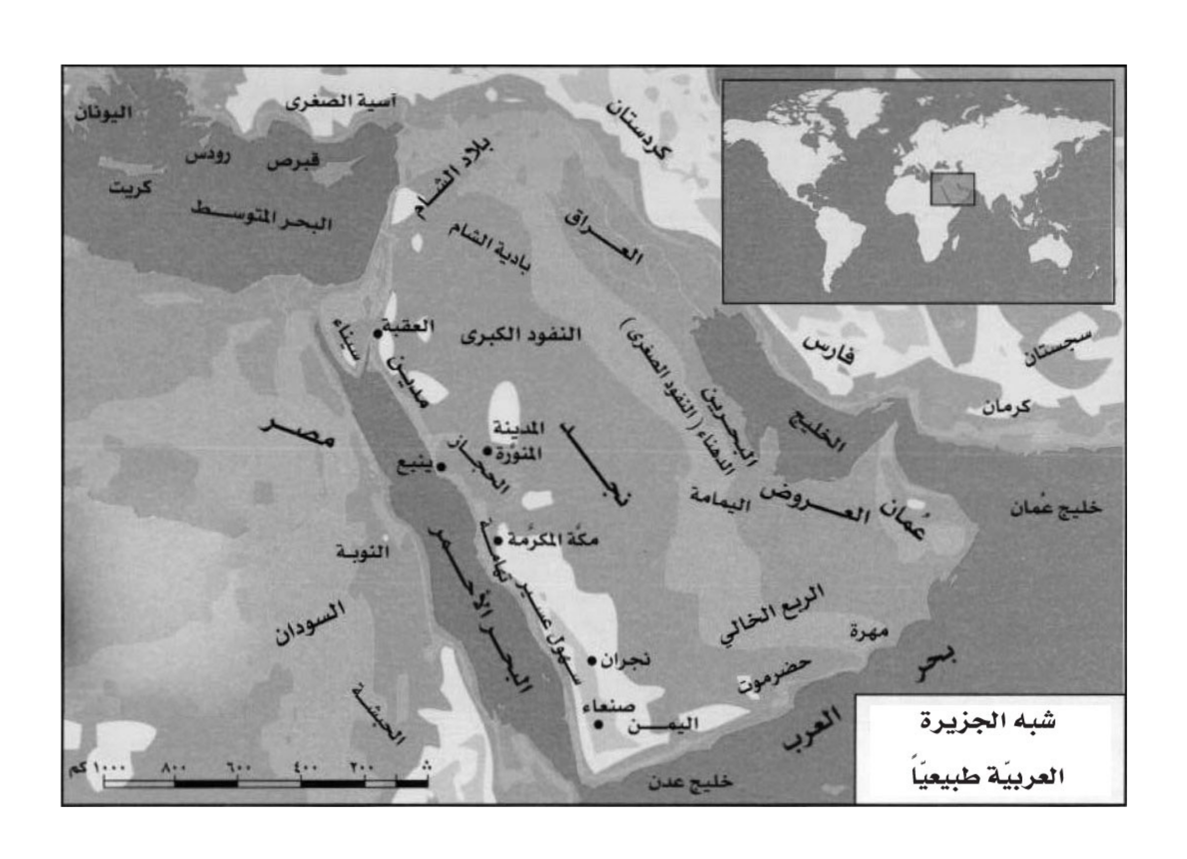
- المجتمـع العربـيّ كان قائمـاً على التعصُّـب القبليّ الأعمى؛ ينتصـرون للقبيلة سـواء أصابت أم أخطأت[٣].
- الثأر من القبيلة كلّها حتّى ولو كان المُخطئ فيها أحد أفرادها.
- التفاخر بالأنساب[٤] ولا سيّما بين العدنانيّين عرب الشمال، والقحطانيّين عرب الجنوب.

---

(٣) رفض الإسـلام العصبيّة الجاهليّـة العمياء، واعتبرها نوعاً من التوجه الجاهليّ البعيد عن المنطـق: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ الفتح: ٢٦. وقال رسـول الله: "من تعصّب أو تُعُصّب له فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه"، ثواب الأعمال للصدوق، ص٢٦٣.

(٤) ولهذا السبب كانت هناك قيمة وأهميّة لعلم الأنساب عند العرب.

- الحروب والنهب والقتل؛ حيث لم يكن العربيّ يحمل مشاعر ودّية للناس خارج إطار قبيلته، سوى تحريمهم للقتال في الأشهر الحُرم ذي القعدة، وذي الحجّة، ومحرّم، ورجب وكان ذلك ممّا تمسّك به العرب من ملّة إبراهيم وإسماعيل.
- من أبرز المفاسد ومظاهر الجهل عند عرب الجاهليّة نظرتهم إلى المرأة، التي حُرِمت من قيمتها الإنسانيّة ومن حقوقها الاجتماعيّة، ومن الإرث. وكان الرجل إذا مات وله زوجة تزوّجها ابنه من بعده إن لم تكن أمّه، لأنّها من المواريث، فضلاً عن وأدهم للبنات وهُنَّ أحياء لكونهنّ عاراً على القبيلة، ولعدم قدرة المرأة على القتال والدفاع عن نفسها في الحروب، وخوفاً من السبي.



شبه الجزيرة العربيّة طبيعيّاً

خلاصة الدرس

- إنّ التعرُّف إلى تاريخ وجغرافيّة المنطقة التي وُلِد فيها خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم، ونشأ وعاش في أرجائها حتّى بعثه الله برسالته؛ يُساعدنا على الوقوف على الدور الذي لعبه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته المباركة، في النقلة الحضارية الكبرى لإنسان هذا الموطن، الذي كانت همومه وآماله تُؤطِّرها هموم وآمال القبيلة، حيث لم يعرف الدولة وقوانينها، ولم يحمل مظاهر الحضارة، حتّى إذا ظهر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأسّس الدولة الإسلاميّة في المدينة المنوّرة، حدث التحوُّل التاريخي في حياة إنسان الجزيرة وجوارها.
- إنّ دراسة الظواهر والحالات التي كانت تكتنف المجتمع الجاهليّ قبل الإسلام، تُسهم في التعرُّف:

أوّلاً: إلى قِيَم هذا المجتمع وأحوآله.

ثانياً: تُساعدنا أيضاً في التعرُّف إلى الدور الذي لعبته الرسالة في تحرير هذا الإنسان، ونقله بنورها إلى عالمٍ أرحب هو عالم العدل وكرامة الإنسان والمساواة التي لم يكن ينعم بها الإنسان من قبل.

- كانت الحالة السياسيّة للمجتمع العربيّ الجاهليّ قبل الإسلام عبارة عن الحُكم القَبَليّ، فالقبيلة هي الوحدة السياسيّة، وأفراد القبيلة ينتمون إلى أصلٍ واحد مشترك، تجمعهم وحدة الجماعة وتربطهم رابطة الدم والعصبيّة للعشيرة، وهذا ما أدّى إلى وجود الانحلال والتفكّك في ذلك المجتمع، ولم يكن هناك وجود لسلطة حكوميّة ولا نُظُم ولا تشكيل سياسيّ، والحاكم السياسيّ هو التعصُّب القبليّ الأعمى. وهذا ما رفضه الإسلام بدعوته.

٢

الدرس الثاني

الحالة الدينيّة في الجزيرة العربيّة

الدرس الثاني

الحالة الدينيّة في الجزيرة العربيّة

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف إلى الحالة الدينيّة عند العرب قبل الإسلام.

لم يكن سكان الجزيرة العربيّة جميعهم على دينٍ واحد إبّان ظهور الإسلام، فكانت الديانة الغالبة آنذاك هي عبادة الأصنام، كما كان هناك أتباع ديانات أخرى كالمسيحيّة واليهوديّة والحنيفيّة والمانويّة والصابئة، يقطنون في بقاع شتّى من الجزيرة.

ولم يَسْلَم أيّ من تلك الأديان من التشويش والتحريف اللّذين طرآ عليها عبر الزمن، فانطوت على كثير من المغالطات والتضليل فنفرت النفوس منها.

وفيما يلي شرحٌ موجزٌ عن الأديان المعروفة والمتَّبعة آنذاك:

الموحِّدون

الموحّدون أو الحنفاء [١]، هم الذين كانوا يرفضون عبادة الأصنام، ويُؤمنون بوحدانية الله تعالى، وأحياناً بالبعث والحساب ويوم القيامة، وكان قسمٌ من هذه الجماعة من أتباع الديانة المسيحيّة، ومنهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وقُسّ بن ساعدة الأياديّ، وزهير بن أبي سلمى...

ونزوع هؤلاء الأشخاص إلى التوحيد يرجع إلى سلامة فطرتهم، والفراغ الدينيّ في ذلك المجتمع، وفقدان الديانتين المسيحيّة واليهوديّة لأصالتهما، وعدم قدرتهما على بثّ السكينة في النفوس، ولذلك كان الموحِّدون يبحثون عن الديانة الحقّة، ويقطعون المسافات للقاء علماء من النصارى واليهود، للتحقُّق منهم حول العلامات الواردة في الكتب السماويّة عن بعثة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم. وغالباً ما كانوا يَصِلون إلى نتيجة مفيدة.

(١) حنيف وجمعها أحناف، تطلق هذه الكلمة على من يتَّبع دين النبيّ إبراهيم عليه السلام.

المسيحيّة

انتشـرت المسيحيّة في بعض أجـزاء جزيرة العرب، ففي الجنوب عن طريق الحبشة، وفي الشمال عن طريق سورية [٢]، وشبه جزيرة سيناء، إلّا أنّها لم تجتذب إليها أنصاراً كُثُر، وكان من هؤلاء النصارى: قيس بن ساعدة، وحنظلة الطائي، وأُميّة بن أبي الصلت.

وتغلغلت المسيحيّة في اليمن منذ القرن الرابع الميلاديّ. وعند ظهور الإسلام كانت بعض أحياء العرب في اليمـن على دين النصرانيّة. وأهمّ مواطن النصرانيّـة في جزيرة العرب كان نجران، وهي مدينة خصبة عامرة بالسكان والتجارة [٣].

وبقيت النصرانيّة رائجة في اليمن إلى أن حَكَمَ ذو نوّاس أرض اليمن، فوقع بالنصارى وقتلهم إرغاماً لهـم على تـرك دينهم، وعندما رأى ثباتهم أحرقهم في أخدود نارٍ حفره لهم. وقد استنجد النصارى بالحبشـة فأنجدوهم، وغـزوا بلاد العرب سنة ٥٢٥م، وهزموا ذا نوّاس، وعاد المسيحيّون إلى الحُكم من جديد [٤].

وكذلـك انتشرت المسيحيّة في الحِيرة قرب الكوفة، بواسطـة أسرى الحرب الرومانيّين... وأهمّ دليل يشهـد علـى وجود هذا الديـن في زمن نزول القـرآن في جزيرة العرب، هو مباهلـة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قساوسة وفد نجران [٥].

اليهوديّة

انتشـرت اليهوديّـة في جزيرة العرب قبـل ظهور الإسلام لا سيّما في اليمـن، وخيبر ويثرب، حيث بنو قريظـة وبنو النضير وبنو قينقـاع. وكان لليهود وزنهم السياسيّ والعسكريّ والاقتصاديّ، واستطاعوا

(٢) كانت الشام آنذاك تحت سيطرة الدولة الرومانية الشرقية.

(٣) حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسيّ، ج: ١/ص٦٤.

(٤) يروي بعض المفسّرين أنّ الآيات ٤ ـ ٩ من سورة البروج نزلت في قتل النصارى، أو أنّ هذه الواقعة ممّا تنطبق عليه هذه الآيات الميـزان في تفسـير القرآن: ج٢٠/ص٢٥١ ـ ٢٥٧ حيث قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ❖ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ❖ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ❖ وَهُـمْ عَلَـى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ❖ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ❖ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ البروج الآيات٣-٩.

(٥) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: إنتشارات إسماعيليان، قم، ط٣، ١٣٩٣هـ ج٣، ص٢٢٨.

أن يستهلكـوا مـن الدولة الإسلاميّة فيما يُقـارب سبع سنوات من الحروب والغـزوات، حتّى استطاع الإسلام أن يقضي عليهم سياسيّاً وعسكريّاً. وقد كان اليهود هم المحرِّضون الفعليّون للمشركين على حرب رسول الله ﷺ، وهم المتآمرون الأكثر خبثاً ودهاءً مع الفرس على الدولة الإسلاميّة وعقيدتها.

لقـد كان اليهود يعتبرون أنفسهـم شعبَ الله المختار، وأنّهم القادة الذيـن رشّحهم الله تعالى لقيادة البشريّـة، ولذلـك كانوا يَرَون بعثة الرسول ﷺ من العرب – لا من بنـي إسرائيل – انتزاعاً للقيادة من أيديهم وتسليمها لغيرهم، ولذلك كانت عداوتهم عنيفة، وكان حقدهم شديداً.

نشـر اليهـود في جزيرة العرب تعاليم التوراة المُحرَّفة وما جـاء فيها حتّى تهوّد كثيرٌ من قبائل اليمن. ومن أشهر المتهوِّدين ذو نوّاس. ملك اليمن. وقد اشتُهر بتحمُّسه لليهوديّة واضطهاده لنصارى نجران، وإعلانه اليهوديّة ديناً رسميّاً [1].

الوثنيّة

كانـت الوثنيّة منتشرة في جميع أنحاء الجزيرة العربيّـة، فكادت تُعتبر الديانة الأكثر أتباعاً وانتشاراً فيها، وهنا لا بدّ من ذكر النقاط التالية:

١. نشأة الوثنيّة:

يُنقل أنّ أوّل من أدخل عبادة الأصنام إلى مكّة عمرو بن لُحيّ الخُزاعي، الذي أُصيب بمرض الحكّة في جلـده، فَوُصِفَ له الاغتسال بماءٍ حارّة في بلاد حـوران، فذهب واغتسل بها فشفاه الله، ووجد الناس هناك يعبدون الأصنام، فحمل معه صنماً فنصبه في الكعبة الشريفة، وقيل غير ذلك [2].

٢. أصنام العرب:

مـن أصنامهم مناة، الـلاّت، العُزّى، هُبل وهو الذي جاء به عمرو بن لُحيّ، إساف ونائلة، ودّ، يغوث، يعوق، نَسر...

٣. إيمان الوثنيّين بالله تعالى:

---

(١) راجع أمين، أحمد، فجر الإسلام، مكتبة النهضة العربيّة، القاهرة، ط٩، ١٩٦٤م ص ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٧.

(٢) ومـن ذلـك أنّ أصل عبادة الأصنام حدثت عندما كَثُر أبناء إسماعيل عليه السلام واضطرّوا إلى أن يخرجوا من مكة طلباً للعيش، فكانوا يحملون عند خروجهم شيئاً من تراب الحرم الذي يحمل ذكرى الكعبة، أثر أبيهم إسماعيل، ثمّ حملوا هذا التراب للحفاظ عليه، وتطوّرت الذكرى إلى تقديس، فعبادة.

كان الوثنيّـون يؤمنون بـالله العليّ الأعلى، وأنّه هو الخالق البارئ المصـوّر، وقد حكى القرآن الكريم إيمانهم هذا بقوله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾[٣].

وهـم لا يعبـدون هذه الأصنام إلّا لتكون وسيلتهم إلى الله، كما قال تعـالى على لسانهم ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾[٤]، وبذلك وقعوا في مفارقات غريبة لا يقبلها عقل، ولا يُقرُّ بها منطق.

الصابئة

ظهرت هذه الديانة في عهد حكم طهمورث، ومؤسّس هذه الديانة هو يوذاسف.

وقيـل عنهم بأنّهم أُناسٌ يوحّـدون الله ويُنزِّهونه عن القبائح ويصفونه بالسلب لا بالإيجاب، كقولهم: لا يُحـدّ ولا يُرى ولا يَظلـم ولا يجور، وينسبون التدبير إلى الفلك وأجرامـه، ويقولون بحياتها ونطقها وسمعها وبصرها، وكانت لهم هياكل وأصنام بأسماء الشمس معلومة الأشكال؛ مثل هيكل بعلبكّ لصنم الشمس، وهياكل في حرّان منسوبة إلى القمر. وقد آلت هذه الديانة في عصرنا إلى الانقراض[٥].

هذا بالإضافة إلى الديانة المانويّة والزردشتية التي تُقدِّس النار المجوسيّة والمزدكية. وقال بعضٌ: بأنّ هذه الديانات لم تكن منتشرة في الجزيرة العربيّة باستثناء المانويّة.

كما وكان قسم من أهالي الجزيرة العربيّة يعبدون الجنّ والملائكة.

خلاصة الدرس

- تعدّدت الأديان التي كانت منتشرة قبل ظهور الإسلام في الجزيرة العربيّة والمناطق المحيطة بها، فبالإضافة إلى الموحِّدين والمسيحيّة واليهوديّة كانت هناك المجوسيّة، وكانت الوثنيّة أكثر انتشاراً في أنحاء الجزيرة العربيّة.

(٣) لقمان: ٢٥.

(٤) الزمر: ٣.

(٥) البيرونيّ الخوارزميّ، أبو الريحان محمّد بن أحمد، الآثار الباقية، مطبعة المثنى، بغداد، ص ٢٠٥.

للمطالعة

منزلة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الأخلاقيّة في العهد الجاهليّ

إنّ الصيغة القرآنيّة، لمواصفات الشخصيّة المؤمنة بنماذجها المختلفة، قد أخذت طريقها للتجسيد العمليّ في شخصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فشخصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد مثّلت قمّة التسلسل، بالنسبة لدرجات الشخصيّة الإسلاميّة، التي توجد عادة في دنيا الإسلام، فكان صلى الله عليه وآله وسلم عظيماً في فكره ووعيه، قمّة في عبادته وتعلّقه بربّه الأعلى، رائداً في أساليب تعامله مع أسرته والناس جميعاً، مثاليّاً في حسم الموقف، والصدق في المواطن، ومواجهة المِحن، فما من فضيلة إلّا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سابقٌ إليها، وما من مكرُمة إلّا وهو متقلّد لها.

ومهما قيل من ثناء أخلاقيّاته السامية قديماً وحديثاً، فإن ثناء الله تعالى عليه في كتابه العزيز، يظلّ أدقّ تعبير وأصدق وصف لمواصفات شخصيّته العظيمة دون سواه.

فقول الله تعالى: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم [1] ٢١عجز كلّ قلم وكلّ تصوّر وبيان عن تحديد عظمته، فهو شهادة من الله سبحانه وتعالى على عظمة أخلاق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وسمو سجاياه، وعلوّ شأنه، في مضمار التعامل مع ربّه ونفسه ومجتمعه، بناءً على أنّ الأخلاق مفهوم شامل لجميع مظاهر السلوك الإنسانيّ.

وقبل أن يتحدّث القرآن عن عظمة أخلاقه، فقد نطق الكفّار والمشركون بهذه الحقيقة، والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يُبعث بعد، فاتّصاف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالخُلُق العظيم، لم يكن وليد الفترة التي بُعث فيها، أو من إفرازات تلك المرحلة تمشّياً مع أهميّة الدور الملقى على عاتقه، لا، بل التاريخ يذكر أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان ذا منزلة أخلاقيّة عظيمة في العهد الجاهليّ، وكان محلّ إعجاب وتقدير قومه ومجتمعه، بل ومضرب المثل في ذلك. وقد شهد الكفّار أنفسهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصدق اللهجة والأمانة والعفاف ونزاهة الذات.

فقد روي أنّ الأحنس بن شريق لقي أبا جهل يوم بدر فقال له: يا أبا الحكم، ليس هنا غيري وغيرك

(١) القلم: ٤.

يسمع كلامنا، تُخبرني عن محمّد صادق أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله إنّ محمّداً لصادق وما كذب قطّ.

وقال النضر بن الحارث لقريش: قد كان محمّد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتّى إذا رأيتم في صدغيه الشَّيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر؟! لا والله ما هو بساحر.

ولمّا بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، أحضر قيصر أبا سفيان وسأله بعض الأسئلة مستفسراً عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وممّا سأله، قال: فهل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقلت والكلام لأبي سفيان: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، قال: كيف عقله ورأيه؟ قلت: لم نعب له عقلاً ولا رأياً قطّ..

وروى الطبريّ: كانت قريش تُسمِّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن ينزل عليه الوحي الأمين.

ورُوي عن أبي طالب رضوان الله عليه في حديث عن سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في الجاهليّة قال: لقد كنت أسمع منه إذا ذهب من الليل كلاماً يُعجبُني، وكنّا لا نُسمّي على الطَّعام والشَّراب حتّى سمعتُه يقول: بسم الله الأحد، ثمّ يأكل فإذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله كثيراً، فتعجّبت منه، وكنت ربّما أتيت غفلة فأرى من لدن رأسه نوراً ممدوداً قد بلغ السماء، ثمّ لم أرَ منه كذبة قطّ ولا جاهليّة قطّ، ولا رأيته يضحك في غير موضع الضحك، ولا وقف مع صبيان في لعب، ولا التفت إليهم، وكانت الوحدة أحبّ إليه والتواضع".

٣

الدرس الثالث

السيرة ومصادرها الأصيلة

الدرس الثالث

السيرة ومصادرها الأصيلة

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى الهدف من السيرة ومعناها.

٢. أن يطّلع على التشويه والتحريف الذي تعرّضت له السيرة النبويّة.

٣. أن يُعدّد أهمّ مصادر السيرة النبويّة.

معنى السِّيرة النبويّة والهدف من دراستها

كلمة السِّيرة مشتقّة من كلمة السَّير، والسَّير يعني المشي والحركة، بينما السِّيرة تعني طريقة المشي والحركة والسلوك.

<u>وبعبارة أُخرى:</u> السيرة عبارة عن الأسلوب والنمط الذي يتّبعه الإنسان في حياته وفي أعماله اليومية.

وعندما نبحث في السيرة النبويّة، فإنّنا نُريد التعرُّف إلى الأسلوب والنمط الذي كان يتّبعه النبيّ محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم في أعماله اليوميّة، للوصول إلى أهدافه النبيلة،

مثلاً: كيف كان سلوكه؟ كيف كانت أخلاقه وعلاقاته بأصحابِه وزوجاته ومجتمعه؟ كيف كان يُبلّغ رسالته؟ ما هي الأحداث التي واجهها في طريق الدعوة إلى الله؟ وكيف كان يتعامل معها؟ كيف كان يقود مجتمعه إداريّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً وتربويّاً وتعليميّاً؟ وغير ذلك.

خلاصة ما يراد بحثه في السيرة

إنّ الكشف عن جوانب شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وما يرتبط بحياته ومواقفه وسلوكه وأوضاعه وطريقة تعامله مع الأحداث والتحدّيات والمستجدّات، وغير ذلك، هو ما يُراد بحثه عادة في السيرة النبويّة [1].

---

(١) تفرّدت مدرسة أهل البيت عليهم السلام بالحثّ على تدوين السنّة الشريفة والاهتمام بحفظها ونشرها، بالرغم من خطر السلطة الحاكمة والضغط الذي كانت تمارسه على الصحابة والتابعين تحت شعار: يكفيكم كتاب الله تعالى، ومن كان عنده شيء غير القرآن فليمحُه!

وتتجلّى هذه السيرة في مجموع أقوال المعصومين عليهم السلام وأفعالهم ومواقفهم تجاه الأحداث والظواهر المختلفة، التي عاصروها وعاشوها منذ بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حتّى انتهاء الغيبة الصغرى للإمام الثاني عشر المهديّ المنتظر.

القرآن واهتمامه بالسيرة

وقد اهتمّ القرآن الكريم ببيان سيرة الأنبياء عليهم السلام والصلحاء، ودعا إلى الاقتداء بسيرتهم، والاعتبار بسيرة الغابرين والاتّعاظ بها، كما دعا وأكّد على الاهتمام بسيرة خاتم الأنبياء وسيّدهم محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحثّ المسلمين على الاقتداء برسوله الكريم في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾[٢] .

الرسول قدوة

ثمّ أمر المسلمين جميعاً بالالتزام بما يصدر عن رسوله الذي لا ينطق عن الهوى بقوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾[٣].

ومن المعلوم أنّ السيرة العظيمة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد تعرّضت للكثير من الجعل والافتراء والتشويه على أيدي الكثيرين من حكّام ومندسّين وغيرهم.. حيث كانت لدى هؤلاء خطّة خبيثة تستهدف النيل من شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته. وقد نُفِّذت هذه الخطّة عن طريق دسّ نصوص مُخْتَلقة ومزيَّفة في كتب السيرة والتاريخ تُسيء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتنسب إليه ما لا يليق به.

مصادر السيرة النبويّة:

إذا عرفنا أهميّة دراسة السيرة وما لحق بها من تشويش وتحريف، كان من الضروريّ جدّاً أن نُكوِّن صورةً واضحةً ونقيّة عن حياة وسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن نعتمد على مصادر صحيحة، ومعايير وضوابط تكون قادرةً على إعطائنا الصورة الحقيقيّة الأكثر نقاءً وصفاءً عن شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وتكون قادرة أيضاً على تمييز الجانب المُصطنَع والمُزيَّف عن الصحيح وإبعاده عن محيطنا الفكريّ والعمليّ بصورةٍ كاملة، طبق ضوابط ومعايير حقيقيّة.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) الحشر: ٧.

هنـاك عـدّة مصادر يُمكننا بالاعتمـاد عليها أن نستخلص معالم شخصيّة النبـيّ ﷺ، وتفاصيل حياته وسيرته وهي:

أولا: القرآن الكريم

لقد قدّم القرآن الكريم صورةً واضحة ورائعة عن شخصيّة النبيّ ﷺ وصفاته وخصائصه ومواقفه في كثير من السور والآيات. ويستطيع قارئُ القرآن من خلال التدبُّر التامّ في الآيات التي نزلت في شأنِ رسول الله، أنْ يُحيط بالكثير من جوانب شخصيّته وحياته، مُنذ أن بعثه الله وإلى أن فارق هذه الدنيا.

فقد أشار القرآن مثلاً إلى مكانة النبيّ ومنزلته وعظمته ﷺ، في كلٍّ من سور الحجرات والنور والأحزاب وغيرها، وأشار إلى أسمائه وألقابه ﷺ في سور الصفّ وآل عمران والمائدة، وإلى صفاته وخصائصه ﷺ، كالعصمة والطهارة والرأفة والرحمة والعطف والشجاعة، في كلٍّ من سور آل عمران والتوبة والأحزاب والأنبياء وغيرها، وأشار القرآن إلى أخلاقه وصبره وثباته ﷺ في مواقع التحدّي، وإلى طريقة تبليغه للرسالة، وإلى مواقفه من عدم استجابة قومه لدعوته وغير ذلك ممّا يرتبط بحياته وسيرته، في كثير من الآيات والسور.

فالرجوع إلى نفس القرآن لاستخراج سيرة النبـيّ يُعتبر من أوثق وأصحّ الطرق والمصادر لدراسة السيرة النبويّة الصحيحة.

ثانيا: النصوصُ الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام

التي عرضت سيرة وحياة رسول الله، فإنّ هذه النصوص تُعتبر في الأهميّة بعد القرآن الكريم؛ لأنّ أهل البيت عليهم السلام أدرى بما فيه، وهم الأئمّة المعصومون الذين يحملون العلم الإلهيّ ... وعندهم علم الكتاب وعلم ما كان ويكون بإذن الله تعالى. وليس لأحد - كائناً من كان - أن يُناقش فيما يُنقل بطريق صحيح عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، الذي لازم رسول الله ﷺ في جميع مراحل حياته، وكان يتّبعه اتبّاع الفصيل أثرَ أمّه، ويراه في الأوقات التي لا يراه فيها غيرُه.

وقد ورد عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام مئات بل آلاف النصوص والروايات، التي تحدّثت عن حياة رسول الله العامّة والأحداث الكبرى التي عاشها في حياته، وعن سيرته الذاتيّة والخاصّة.

ثالثا: الروايات التاريخيّة المرويّة المعتبرة

فالنصوص المرويّة عن الأثبات من الصحابة الذين لا يميل بهم هوى عن جادّة الحقّ، والتي تتحدّث عن سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، تُعتبر من مصادر السيرة والتاريخ إذا ثبتت صحّتها بالتواتر أو بإحدى وسائل الإثبات الأخرى.

خلاصة الدرس

- إنّ سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام هي طريقتهم ومنهجهم في الحياة، ويتجلّى ذلك في مجموع أقوالهم وأفعالهم ومواقفهم. وسيرة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم هي الأسلوب والنمط الذي كان يتّبعه في أعماله اليومية من خلال سلوكه وأخلاقه وعلاقاته بالآخرين.
- المصادر الأساس التي يُمكن الاعتماد عليها للتعرُّف إلى معالم شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته هي:
  1. القرآن الكريم
  2. النصوص الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام التي عرضت سيرة وحياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
  3. الروايات التاريخيّة المعتبرة.

٤

الدرس الرابع

ضوابط السيرة الصحيحة

الدرس الرابع

ضوابط السيرة الصحيحة

أهداف الدرس:

١. أن يطّلع على التشويه والتحريف الذي تعرّضت له السيرة النبويّة.

٢. أن يستذكر الضوابط والقواعد الصحيحة للسيرة.

أهمُّ الضوابط والقواعد التي ينبغي اعتمادها في تصحيح السيرة هي:

١. دراسة أحوال وأوضاع الناقلين للحديث

فإنَّ أوّل ما ينبغي ملاحظته في الحديث المنقول السندُ: وهو عبارةٌ عن مجموع أسماء الأشخاص الذين نقلوا لنا الحديث أو الحدث التاريخيّ، فلا بُدّ من دراسة أحوال وأوضاع هؤلاء الرواة لمعرفة ميولهم وارتباطاتهم السياسيّة والمصلحيّة، ولمعرفة مدى صدقهم ودقّتهم فيما أخبرونا به، لتحديد مدى امكانيّة الوثوق والاعتماد على نقلهم.

وطبيعيٌّ أنّ من عُرف عنه أنّه يكذب في خبره أو لا يُدقِّق في نقله، لا يُمكن الاعتماد عليه، إلّا بعد أن نتأكد من صحّة ما نقله من مصادر وجهات أخرى.

وكذلك من عُرف عنه أنه ينساقُ وراء أهوائه السياسيّة أو المذهبيّة أو المصلحيّة، لا يُمكن الأخذ بما ينقله لنا؛ لأنّه يكون بذلك قد أخلّ بدرجة الوثوق والاطمئنان.

٢. انسجام مضمون النصّ مع صفات وخصائص الشخصيّة النبويّة ومميّزاتها المثاليّة والرساليّة

عندها يكون مقبولاً ونأخذُ بمضمونه إذا توافرت فيه سائرُ شروط القبول الأخرى.

مثلاً: إذا ثبت لدينا بالدليل القطعيّ الصحيح؛ أنّ شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هي في أعلى درجات الطُّهر والعصمة والحكمة والشجاعة، وأنّه يتحلّى بكلّ الصفات النبيلة والفاضلة، جامعاً لكلّ القيم الإنسانيّة السامية، فلا بُدّ من جعل كلّ ذلك معياراً وميزاناً لأيّ نصٍّ يُروى بشأنه، أو يُريد أن يُسجّل لنا قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو موقفاً له صلى الله عليه وآله وسلم.

فإذا لم يكن النصُّ منسجماً مع هذه الخصائص والمميّزات الثابتة بالدليل القطعيّ الصحيح فإنّه

لا يُمكن قبوله، كما لو نسب النصُّ ـ والعياذ بالله، الرذيلة أو الفجور لرسول الله ﷺ، أو عبادة الأصنام، أو التصرّفات التي تُعبّر عن جهله أو عدم اتّزانه، فإنّنا لا نتردّد في رفض مثل هذا النص. كذلك لا نقبل أن تُنسب إلى أحدٍ من أئمّة أهل البيت عليهم السلام تصرُّفات لا تليق بمقامهم الثابت.

٣. عرضُ النصوص على القرآن الكريم

هذه قاعدةٌ لا بُدَّ أن نعتمدها في كلّ الأحاديث المنقولة عن النبيّ ﷺ أو عن أحد أئمّة أهل البيت عليهم السلام سواء أكانت تاريخيّة أم فقهيّة أم أخلاقيّة أم غير ذلك، فما وافق كتاب الله نأخذ به وما خالفه نتركه.

فقد رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «تكثُر لكم الأحاديث بعدي، فإذا رُوي لكم عنّي حديث فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فاقبلُوه وما خالفَ فردُّوه»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما لم يُوافق من الحديث القرآنَ فهو زُخرُفٌ»[٢].

٤. عدم التناقض والتنافي بين النصوص

فإنّ وجود التناقض فيما بينها يُشير إلى وجود نصّ مجهول، أو تعرّض النصّ لتصرُّفٍ ما أزاله عن وجهته الصحيحة، الأمر الذي يستدعي مزيداً من الانتباه، وبذل المزيد من الجهد لمعرفة الصحيح من المزيَّف منها.

٥. عدم مخالفة النصّ للواقع المحسوس

كما لو ادّعى النصّ: أنّ أقرب طريق من مكّة إلى المدينة يمرّ عبر الأندلس.

٦. عدم مخالفة البديهيّات والضرورات العقليّة الثابتة

ومن ذلك قولهم: إنّ الله عادل وحكيم، ولكنه يُجبر عباده على أفعالهم، ثمّ يُعاقبهم عليها. وقولهم: إنّه تعالى لا يحدّه مكان ولا جهة، ثمّ يقولون إنّ له ساقاً وقدماً وأصابع وما إلى ذلك.

---

(١) الشيخ الأميني، الغدير، ج٨، ص٢٦.

(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٦٩.

٧. عدم مخالفة الحقائق العلميّة الثابتة بالأدلّة القطعيّة

كالنصّ الذي يقول: إنّ الأرض تقوم على قرن ثور.

٨. عدم التناقض مع الثوابت التاريخيّة القطعيّة

فـإذا كان من الثابـت أنّ الإسراء والمعراج قد حصلا قبل الهجرة، وثبـت أن عائشة انتقلت إلى بيت رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعـد الهجرة، فلا يُمكن- بعد هذا- تصديق النصّ الذي يُنقل عن عائشة نفسها من أنّها قالت: ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تلك الليلة؛ يعني ليلة الإسراء والمعراج.

٩. عدم مخالفة الأحكام العقليّة والفطريّة السليمة

ومـن ذلك حكم العقل بوجوب عصمة النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليه السلام عن الخطأ، فالنصّ الذي يُريد أن ينسـب إلى النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم والإمـام المعصوم عليه السلام خطأً معيّناً، لا نتردّد في رفضـه ولا نشكّ في أنّه من الأخبار المصطنعة.

خلاصة الدرس

- هناك ضوابط ينبغي اعتمادها في تمييز النصّ الصحيح من الفاسد:

١. دراسة أحوال وأوضاع الناقلين للحديث.

٢. انسجام النصّ الحاكي عن سلوك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مع صفاته وخصائصه.

٣. عرض النصّ التاريخيّ على القرآن الكريم.

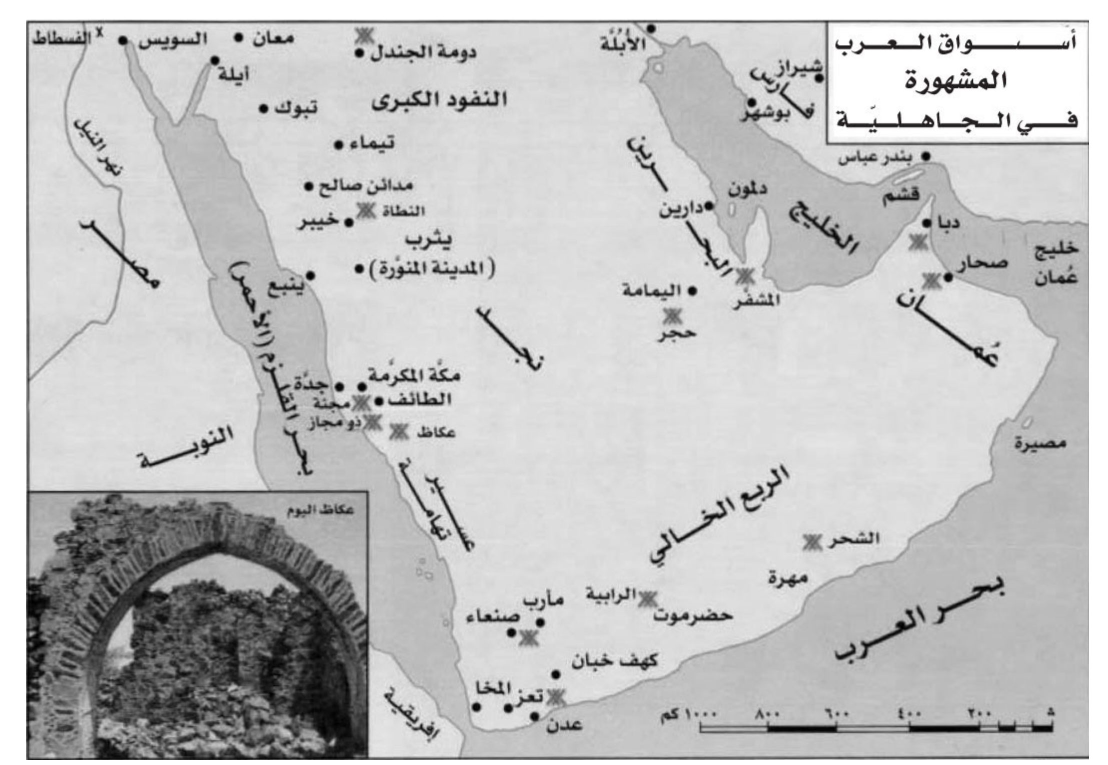
٤. عدم التناقض بين النصوص

٥. عدم مخالفتها للواقع وللبديهيّات والضرورات العقليّة وللحقائق العلميّة والثوابت التاريخيّة.

٦. موافقة النصّ الصادر عن المعصوم للعقل والفطرة.

للمطالعة

أسواق العرب المشهورة في الجاهليّة





للمطالعة

التصوير القرآنيّ للخُلُق العظيم

لا شكّ أنّ أصدق شاهد على عظمة أخلاق رسول الله ﷺ هو القرآن الكريم، وهو كلاّم الله تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾[1]. فقد أشاد القرآن كثيراً بأخلاق صاحب الرسالة ﷺ ، وكثُرت فيه الآيات التي تتحدث عن شخصيّته الأخلاقيّة وخصائصه وصفاته الفاضلة، ونحن سنستعرض ما تيسّر من هذه الآيات:

١. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[2].

(١) النساء: ١٢٢.

(٢) آل عمران: ١٩٥.

فالآيــة الكريمــة تحكي لنا جانــب العفو والرحمــة والرفق واللــين في سلوك النبــيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتعامله مع الآخرين.

٢. ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١]

لقــد وصفت هــذه الآية الرسول الأعظــم صلى الله عليه وآله وسلم بأوصاف تكشف عن مدى تأثُّــره واهتمامه بالمسلمين وشؤونهــم وحرصه عليهم، وتُعبِّر عن مــدى شفقته ورحمته بهم، وكيف أنّه صلى الله عليه وآله وسلم حين يُصيب الواحد منهم بعض المشقّة والتعب فإنَ ظلالاً من الأسى والحزن تُخيّم عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

٣. **﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ﴾**[٢] .

٤. **﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾**[٣].

فعــن الإمــام الصادق عليه السلام أنّــه قال: "إنّ الله عزّ وجلّ أدَّب نبيّه فأحســن أدبه، فلمّا أكمل له الأدب قال:وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ"[٤] .

٦ـ **﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾** [٥].

فقــد رُوي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قــال: "أدّبني ربي تأديباً حسناً إذ قال: **﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾**فلمّا قبلت ذلك منه قال: وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ" [٦].

---

(١) التوبة: ١٢٨.

(٢) التوبة: ٦٢.

(٣) القلم: ٦.

(٤) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٢٦٦.

(٥) الأعراف:١٩٩.

(٦) تفسير القرطبي، ج١٨، ص٢٢٨.

٥

الدرس الخامس

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الولادة إلى الزواج

الدرس الخامس

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الولادة إلى الزواج

أهداف الدرس:

١. أن يستذكر الطالب نسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢. أن يتعرّف إلى كفالة عبد المطّلب وأبي طالب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وصفاتهما.

٣. أن يُعدِّد أسفار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة.

نسب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

هو محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصيّ، بن كلّاب، بن مُرّة... بن عدنان... إبن النبيّ إسماعيل عليه السلام إبن النبيّ إبراهيم عليه السلام.

والمرويّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان إذا انتسب لم يُجاوز نسبه معد بن عدنان ثمّ يُمسك، وأوصى الآخرين بذلك بقوله: «إذا بلغ نسبي إلى عدنان فأمسكوا»[1]. وقد نفى صلى الله عليه وآله وسلم ما ذكره النسّابون من أسماء أجداده بين عدنان وإسماعيل[2].

واستناداً إلى التقسيم القَبَليّ عند العرب، تُقسَّم العرب بشكلٍ عامّ إلى الشّق "القحطانيّ" و"العدنانيّ". وتُعتبر قريش من العرب العدنانيّين بسبب انتسابها إلى "عدنان". كما أنّ جدّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هاشم بن عبد مناف تنتسب إليه أشرف أُسرة في مكّة وهي أُسرة بني هاشم.

وكانت ولادته المباركة في مكّة المكرمّة، في شُعب أبي طالب، يوم الجمعة في السابع عشر من شهر ربيع الأوّل في عام الفيل الموافق لسنة ٥٧١ للميلاد[3].

---

(١) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ج١، ص١٥٥، قم، المطبعة العلميّة. والمجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار، طهران، دار الكتب الإسلاميّة،ج١٥،ص١٠٥.

(٢) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص١٥٥.

(٣) توفي عبد الله والد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عند عودته من سفر تجارة من الشام، وكان صلى الله عليه وآله وسلم له من العمر أشهر. ورُوي أنّه توفي قبل ولادته صلى الله عليه وآله وسلم.

رضاعته صلى الله عليه وآله وسلم

ولم يرتضع صلى الله عليه وآله وسلم من أمّه سوى ثلاثة أيّام، ثمّ حظيت بشرف إرضاعه حليمة السعديّة؛ التي كانت تُقدِّمه على أولادها لِما وجدت فيه من الخير والبركة، وبقي عندها في البادية إلى أن بلغ سنّ الخامسة، حيث عاد إلى أهله ليكون في كفالة جدّه عبد المطّلب، ومن ثمّ في رعاية عمّه أبي طالب[٤].

النبيّ في كفالة جدّه

سار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم برفقة أمّه آمنة بنت وهب في قافلة إلى يثرب لزيارة قبر والده عبد الله، وفي طريق العودة إلى مكّة توفّيت والدته ودُفنت في منطقة الأبواء، فجاؤوا به إلى جدّه عبد المطّلب.

كان آباء وأجداد الرسول محمّد صلى الله عليه وآله وسلم موحِّدين، ابتداءً من أبيه عبد الله إلى النبيّ آدم، ولم يكن فيهم مشرك، ومنهم جدّه عبد المطّلب، الذي كان سيّداً وشريفاً وجواداً في قريش، وعاش صلى الله عليه وآله وسلم في كفالته، وكان يرعاه خير رعاية، ولا يأكل طعاماً إلّا إذا حضر، ويُفضّله على أبنائه.

ويبدو أنّه كان عارفاً بنبوّته صلى الله عليه وآله وسلم، من خلال صفاته والأحداث التي رافقته منذ ولادته، وكذلك من خلال البشائر والأخبار التي كانت تُنبئ بمستقبله ونبوّته صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان عبد المطّلب من المعتقدين بالمعاد والحساب ويقول: "والله إنّ وراء هذه الدار داراً يُجزى فيها المُحسن بإحسانه، ويُعاقب المُسيء بإساءته"[٥]. ولم يكن متعصباً للقبيلة، وكان يحثّ أبناءه على التحلّي بمكارم الأخلاق، وتُؤثر عنه سنن جاء القرآن والسنّة بأكثرها، منها تحريم الخمر والزنا، وقطع يد السارق، والنهي عن وأد البنات، وأن لا يطوف أحد بالبيت عرياناً، والوفاء بالنذور، وأن لا تُنكح ذات محرم...

وفاة عبد المطّلب ورعاية أبي طالب

توفّي عبد المطّلب ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابن ثماني سنين، فأوصى به إلى عمِّه أبي طالب، وذلك لأنّ عبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبا طالب أخوَان لأمّ. فكفل رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاة عبد المطّلب أبو طالب عمّه، فكان خير كافل لعطفه وحنانه عليه صلى الله عليه وآله وسلم، وكان أبو طالب سيّداً شريفاً مطاعاً، وكان سيّد قومه

(٤) راجع: المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج ١٥، ص٤٠١.

(٥) الألوسي البغدادي، محمود شكري، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، ج ١، ص٣٢٤.

في زمانه. وكان يُحبّ النبيّ ﷺ حُبّاً شديداً.

وربّته فاطمة بنت أسد بن هاشم امرأة أبي طالب، وكانت تُحبّه كثيراً وتحنو عليه، وكان ﷺ يصفها بأنّها أمّه.

السفر إلى الشام ونبوءة الراهب

تحدّث المؤرّخون عن رحلتين للنبيّ ﷺ إلى الشام، إحداهما بصحبة عمّه، والأخرى: بصحبة غلام لخديجة في تجارة لها.

في الرحلة الأولى: كان عمر النبيّ اثنتي عشرة سنة، وكان مع عمّه أبي طالب ضمن قافلة تجاريّة لقريش، وفي الطريق توقّفت القافلة في منطقة بُصرى، وكان فيها راهب يُدعى بحيرا، وقد اتّفق أن التقى الراهب قافلة قريش ولفتت نظره شخصيّة النبي ﷺ وراح يتأوّل ويُحدِّق في صفاته وملامحه[1]، خاصّة بعدما رأى أنّ سحابة من الغيم تُرافق محمّداً ﷺ أينما جلس لتحميه من حرّ الشمس، فأتى الراهب أبا طالب وبشّره بأن ابن أخيه نبيّ هذه الأمّة، وأخبره بما سيكون من أمره بعدما كان قد كشف عن ظهره ورأى خاتم النبوّة بين كتفيه، ووجد فيه العلامات التي وصفته بها التوراة والأناجيل وغيرها[2].

وتذكر النصوص أنّ بحيرا أصرّ على أبي طالب بأن يعود به إلى مكّة، وأن يُبقيه تحت رقابته خوفاً عليه من اليهود وغيرهم، فقطع أبو طالب رحلته ورجع به إلى مكّة.

وفي الرحلة الثانية: كان عمر النبيّ ﷺ خمسة وعشرين سنة، وهذا السفر كان لأجل عمل تجاريّ مع السيّدة خديجة بنت خويلد قبل أن يتزوّج بها، وبإشارة من أبي طالب بسبب الأوضاع المعيشيّة الصعبة آنذاك، وكانت هذه التجارة مع السيّدة خديجة على نحو المضاربة والمشاركة.

ولا بدّ من التأكيد على مسألة مهمّة وهي أنّ النبيّ ﷺ لم يعمل أجيراً في رعي الغنم لأهل مكّة أو لغيرهم، وإن كان قد رعى الغنم لأهله وعشيرته.

---

(١) ابن هشام، عبد الملك، سيرة النبيّ، تحقيق مصطفى السقاء، القاهرة، مطبعة الحلبي، ١٣٥٥هـ، ج١، ص١٨٩.

(٢) ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبويّة،ج ١، ص١٩٣.

خلاصة الدرس

- ينتسب النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إلى أشرف أُسرة في مكّة وهي أُسرة بني هاشم. وقد ولِد في مكّة المكرّمة، ونشأ ولم يرَ والده، ثمّ بعد فترة من الزمن فَقَدَ والدته، فاحتضنه جدّه عبد المطّلب، حتّى إذا كان عمره ثمانية أعوام فَقَدَ جدّه أيضاً، فاحتضنه عمّه أبو طالب عليه السلام فلم يفارقه في كلّ أحوآله، وكان يصحبه معه في أسفاره إلى الشام، وهناك التقى الراهب بحيرا فبشّر أبا طالب بمقام ومنزلة ابن أخيه ثمّ دعاه إلى أن يحفظه من اليهود مخافة أن يكيدوا له إن علموا خبره.
- ولمّا بلغ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العشرين عاماً، ذهب إلى الشام بتجارةٍ للسيّدة خديجة بنت خويلد، وعندما بلغ حدود الخامسة والعشرين تزوّج منها.

٦

الدرس السادس

عقبات في طريق دولة الإمام عليه السلام ٢

الدرس السادس

محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في شبابه

أهداف الدرس:

أن يسرد أخلاق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وحكمته قبل النبوّة.

أن يسرد قصّة زواج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من السيّدة خديجة عليها السلام.

أخلاقه وحكمته

اتفق المؤرّخون على أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم أصبح في مطلع شبابه موضع احترام في مجتمعه، لِما كان يمتلكه من وعي، وحِكمة، وبُعد نظر.

وقد اشتُهر بسموّ الأخلاق، وكرم النفس، والصدق والأمانة، حتّى عُرِف بين قومه بالصادق الأمين، كما اشتُهِر برجاحة عقله، وصوابيّة رأيه، حتّى وَجَدَ فيه المكّيّون والقرشيّون سيّداً من سادات العرب الموهوبين، ومرجعاً لهم في المهمّات وحلّ المشكلاّت والخصومات.

حلف الفضول

وهو أشرف حلف عُقِد بين زعماء عدد من بطون قريش[1]، وكان نتيجةً لسلسلةٍ من حوادث الاعتداء على أموال وأعراض بعض الوافدين إلى مكّة في موسم الحج. فدعا الزبير بن عبد المطّلب إلى إقامة تحالف بين قبائل قريش، بهدف مواجهة كلّ من يعتدي على الآخرين، فاستجاب لدعوته بنو هاشم، وبنو عبد المطّلب، وبنو أسد وغيرهم، وعقدوا اجتماعاً في دار عبد الله بن جدعان، تحالفوا فيه على محاربة الظلم والفساد، والانتصار للمظلوم والدفاع عن الحقّ، وقد سُمّي بحلف الفضول، لأنّ قريشاً قالت بعد إبرامه: هذا فضول من الحلف، وقيل: لأنّ ثلاثة ممّن اشتركوا فيه كانوا يُعرفون باسم

---

(١) سبب هذا الحلف أنّ رجلاً من زُبيد قدم مكّة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل من بني سهم، فحبس عنه حقّه. فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف، فأبوا معونة الزبيدي على إبن وائل وانتهروه. وعندما رأى الزبيدي إجتماع زعماء قريش إلى جانب الكعبة، صعد على جبل أبي قبيس واستغاث، وعلى أثر ذلك دعا الزبير بن عبد المطّلب وكبار القوم إلى اجتماع نتج عنه هذا الحلف.

الفضـل، وهـم الفضل بن مشاعة، والفضل بن بضاعة، والفضـل بن قضاعة. وقد حضر النبيّ ﷺ الحلف المذكور وشارك فيه، وكان يتجاوز العشرين من عمره الشريف[٢].

وكانـت مشاركتـه ﷺ في هـذا الحلف عملاً نبيـلاً، ونوعاً مـن الدفاع عن حقـوق الإنسان في ذلك المجتمـع الجاهلـيّ، ففي الوقت الـذي كان فيه أترابه مـن أبناء مكّة منكبّين علـى الشراب واللذائذ، ومنغمسـين في اللهـو واللعب، كان هو يحضر هذا الحلف إلى جانـب أكابر قريش، وقد أثنى على هذا الحلف بعد بِعْثَته وذَكَرَه بفخرٍ قائلاً: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحبّ أنّ لي به حُمّر النِعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت»[٣].

وهـذا الـكلام يدلّ على أنّ هـذا الحِلْف ينسجم مع أهداف الإسلام، وعلـى واقعية الإسلام حيث إنّه ينظر إلى مضمون العمل وقيمته وليس إلى شكله وصورته، حتّى ولو قام به أهل الشرك، وعلى استجابة الإسلام لكلّ عمل إيجابي فيه خير الإنسان ومصلحته، وانفتاحه على الآخرين.

نصب الحجر الأسود

أثنـاء ولاية قريش على الكعبة، وقبل النبوّة بخمس سنوات، أصـاب الكعبة التصدُّع من آثار السيول، فاجتمعت قريش على أثر ذلك وقرّرت هدمها وتجديد بنائها، ورصدوا لذلك ما تحتاجه من نفقات.

يقول المؤرّخون: إنّ قريشاً وزّعت الهدم والبناء على القبائل، فكان لكلّ قبيلة جهة معيّنة، وكان الوليد بـن المغيرة أوّل مـن بادر إلى هدمها بعد أن تهيّب غيره من فعل ذلـك. ولمّا بلغ البنيان موضع الحجر الأسـود اختلفوا فيمـن يرفعه إلى موضعه، وأصبحت كلّ قبيلة تُريد أن تنـال هي هذا الشرف، لأنّهم كانوا يَرَون أنّ من يضع الحجر الأسود في مكانه تكون له السيادة والزعامة.

وكاد الأمـر يُؤدّي بهم إلى فتنة كبيرة حيثُ استعـدّوا للقتال، وانضمّ كلّ حليف إلى حليفه، ولمّا وصلوا إلى حـدٍّ خطـير اقترح عليهم أبـو أميّة إبن المغيرة أن يُحكّموا في هذا النـزاع أوّل داخل عليهم، فكان محمّد بن عبد الله أوّل الوافدين، فلمّا رأَوه استبشروا بقدومه وقالوا: لقد جاءكم الصادق الأمين، أو هذا الأمين قد رضينا به حَكَماً.

فطلـب منهم النبـيّ ﷺ أن يُحضروا ثوباً فأتَـوا له بثوبٍ كبير، فأخذ الحجـر ووضعه فيه بيده، ثمّ التفـت إلى شيوخهم وقال: "لِتأخُذ كلّ قبيلـة بطرفٍ من الثوب ثمّ ارفعوه جميعاً" فاستحسنوا ذلك،

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص١٣.

(٣) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٨٣، هامش ص ٢٥٦.

ووجدوا فيه حلّاً يحفظ حقوق الجميع، ولا يُعطي لأحد امتيازاً على الآخر، ففعلوا ما أمرهم به، فلما أصبح الحجر بمحاذاة الموضع المُخصّص له، أخذه رسول الله بيده الكريمة ووضعه مكانه[1].

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ ويكشف عن المكانة الاجتماعيّة الخاصّة التي كان يحتلّها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في نفوس الناس في مكّة.

زواجه من خديجة

كانت السيّدة خديجة من خيرة نساء قريش شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكانت تُدعى في الجاهليّة بالطاهرة وسيّدة قريش، وقد تزوّجها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وله من العمر خمسة وعشرون سنة، وقيل غير ذلك، وتُشير النصوص إلى أنّ خديجة هي التي بادرت أوّلاً وأبدَت رغبتها في الزواج من محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بعدما رأت فيه من الصفات النبيلة ما لم تره في غيره. ويُرجِّح بعض المؤرّخين أن يكون عمر خديجة حين زواجها من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ثمانية وعشرين عاماً وليس أكثر من ذلك، كما أنّها لم تتزوّج قبله بأحدٍ قطّ[2].

خلاصة الدرس:

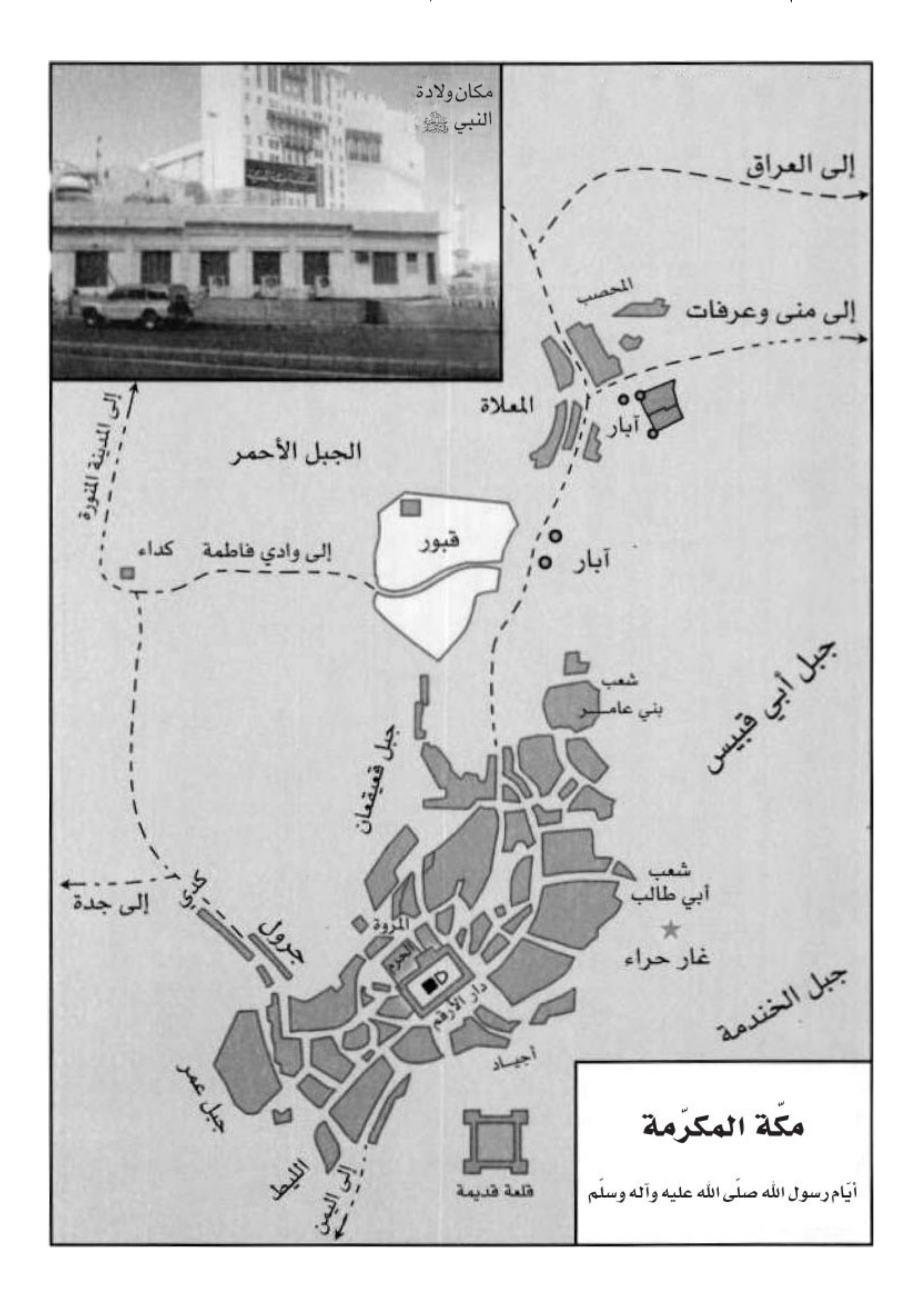
- اشترك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قبل بعثته في حلف الفضول، وكانت قريش تدعوه بـ"الصادق الأمين".
- النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي وضع الحجر الأسود من الكعبة في مكانه، عندما كادت الحرب أن تقع بين القبائل؛ لأنّ كلّ واحدة منها كانت تروم وضع الحجر في مكانه، حتّى حكّموا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك.

---

(١) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج١٥، ص٣٣٧-٣٣٨.

(٢) مرتضى، السيّد جعفر، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، ج١، ص١٢١.

مكّة المكرّمة أيّام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم



للمطالعة

صلاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

نظراً لما تحتلّه الصلاة من مكانة عظمى في الإسلام، فقد كان اهتمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بها وتعاهده لأمرها منقطع النظير.

فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُصلّي الصلاة في أوّل وقتها، ويحثّ المسلمين على ذلك، فقد روى ابن مسعود قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيّ الأعمال أحبّ إلى الله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الصلاة لوقتها. قلت: ثمّ أيّ شيء؟ قال: برّ الوالدين. قلت: ثمّ أيّ شيء؟ قال: الجهاد في سبيل الله»[1].

وعن عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُحدِّثنا ونُحدِّثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه[2].

ولعظيم شوقه للوقوف بين يدي الله في الصلاة، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم ينتظر وقت الصلاة، ويترقّب دخوله، ويقول لبلال مؤذّنه: «أرحنا يا بلال»[3].

عن الحسين بن عليّ عليه السلام، في حديث عن خشوع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صلاته، يقول عليه السلام: «كان صلى الله عليه وآله وسلم يبكي حتّى يبتل مصلاه خشية من الله عزّ وجلّ من غير جرم»[4].

وعن الإمام الباقر والإمام الصادق قالا: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلّى قام على أصابع رجليه حتّى تورّمت فأنزل الله تعالى: ﴿**طه ❖ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾[5].

وعن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام قال: «إنّ جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، فلم يدع الاجتهاد له، وتعبّد، بأبي هو وأمّي، حتّى انتفخ الساق، وورم القدم، وقيل له: أفتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: أفلا أكون عبداً شكوراً»[6].

---

(١) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج٤، ص١١٣.

(٢) الأصبهاني، أخلاق النبيّ، ص٢٥١.

(٣) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٨٣، ص١٦.

(٤) م. ن، ج١١، ص٤٥.

(٥) الطباطبائي،محمّد حسين، سنن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ص٣٢.

(٦) الطوسي، أمالي الطوسي، ص٤٧.

صلاة الليل

وحـول صــلاة رسول الله ﷺ في اللّيل يُحدِّثنا عبد الله بن عباس، يقول: "حتّى إذا انتصف الليل أو قبلـه بقليـل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله ﷺ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثمّ قرأ العشر آيـات الخـواتم من سورة آل عمران، ثمّ قام إلى شنٍّ(٧) معلَّقة، فتوضّــأ منها، فأحسن وضوءه، ثمّ قام يُصلِّـي، فصلّى ركعتين ثـمّ ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ ركعتين ثـمّ ركعتين ثمّ أوتر، ثمّ اضطجع حتّى جاءه المؤذّن، فقام فصلّى ركعتين خفيفتين، ثمّ خرج فصلّى الصبح»(٨).

ومن المعلوم أنّ صلاة الليل ثماني ركعات، ثمّ الشفع ركعتان، ثمّ الوتر ركعة واحدة، والركعتان الأوليان تُستحبـان قبـل صلاة الليل كمـا في حديث الإمام زين العابدين عليه السلام في كتـاب وسائل الشيعة كتاب الصــلاة باب استحباب صلاة ركعتين قبل صــلاة الليل، والركعتان اللتان صلّاهما ﷺ عند مجيء المؤذِّن له هما نافلة الفجر، فيصبح المجموع خمس عشرة ركعة كما ذكر في حديث ابن عباس.

وعن أحد الصادقين قال: «إنّ رسول الله ﷺ كان يُصلّي بعدما ينتصف الليل ثلاث عشرة ركعة».

وسئلت أمّ سلمة عن صلاة رسول الله ﷺ في الليل فقالت: ما لكم وصلاته؟ كان يُصلّي ثمّ ينام قدر ما صلّى، ثمّ يُصلّي قدر ما ينام، ثمّ ينام قدر ما صلّى، ثمّ يُصبح.

وعـن الإمـام الصــادق عليه السلام في حديـث يشرح فيه كيفيّـة إحياء النبـيّ ﷺ لليل قـال: «كان يُؤتى بطهـور فيُخمّر عند رأسه ويُوضع سواكه تحت فراشـه، ثمّ ينام ما شاء الله، فإذا استيقظ جلس، ثمّ قلّـب بصـره في السماء، ثمّ تلا الآيات من آل عمران «إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» ثمّ يستنّ ويتطهّر ثمّ يقوم إلى المسجد، فيركع أربع ركعات على قدر قراءته ركوعه، وسجوده علـى قدر ركوعه، يركـع حتّى يُقال متى يرفع رأسه، ويسجد حتّى يُقال متـى يرفع رأسه، ثمّ يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله، ثمّ يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران ويُقلّب بصره في السماء، ثمّ يستنّ ويتطهّر ويقوم إلى المسجد، فيُصلّي أربع ركعات كما ركع قبل ذلك، ثمّ يعود إلى فراشه فينام ما شـاء الله، ثمّ يستيقظ فيجلس فيتلو مـن آل عمران ويُقلّب بصره في السماء، ثمّ يستنّ ويتطهّر ويقوم الى المسجد فيتوضّأ ويُصلّي الركعتين ثمّ يخرج إلى الصلاة»(٩).

(٧) شنّ: قربة ماء.

(٨) راجع: الشافعي، كتاب الأم، ج١، ص١٩٦.

(٩) ٢١-المجلسي،بحار الانوار،ج٨٤،ص٢٢٨.

٧

الدرس السابع

البعثة النبويّة المباركة

الدرس السابع

البعثة النبويّة المباركة

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى نزول الوحي والأحداث التي رافقته.

٢. أن يُعدِّد بعض أوائل المؤمنين بالدعوة.

٣. أن يُلخّص أسلوب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في بدء الدعوة.

٤. أن يُوجز الإعلان عن النبوّة والولاية في وقتٍ واحد.

إرهاصات الوحي والنبوّة

تعرّفنا في الدرس السابق إلى الأجواء التي عاشها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل النبوّة؛ حيث كان جميع آبائه موحِّدين، وكان صلى الله عليه وآله وسلم على درجةٍ عالية من التربية وحُسن الخُلُق، ولم يتدنّس بعبادة الأصنام، فكان منذ صغره موضع عناية الله تعالى كما يُصوِّر لنا ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره...»[1].

فكان صلى الله عليه وآله وسلم يخلو بضعة أيّام من السنة في جبل حراء، يقضيها بالعبادة والدعاء، وكان من قبل يتعبّد فيه عبد المطّلب. وحينما بلغ النبيّ الأربعين، نزل عليه جبرئيل، وقرأ عليه أوّل آيات القرآن الكريم[2] وهي قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[3]. وبعد تلقين ذلك البيان الإلهيّ، عاد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهله مستبشراً مسروراً بما أكرمه الله به من النبوّة والرسالة.

---

(١) السيّد الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢ المسمّاة بالقاصعة.

(٢) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج ١، ص٢٥١.

(٣) العلق: ١ ـ ٥.

طمأنينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

كانت البعثة النبويّة المباركة في السابع والعشرين من شهر رجب الأَصَبّ، وتَنقُل لنا الروايات أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان مطمئنّاً إلى المهمّة التي شرّفه الله بها، فلم يكن خائفاً أو مرعوباً مما جرى له، بل كان عالماً بنبوّة نفسه، ولمّا دخل على خديجة وأخبرها بما أنزله الله عليه، وبما سمعه من جبرئيل، قالت له: "أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلّا خيراً، وأبشر فإنّك رسول الله حقّاً"[٤].

قال الإمام الصادق عليه السلام في جواب أحد أصحابه زرارة عندما سأله: كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ما يأتيه من قِبَل الله أن يكون ممّا ينزغ به الشيطان؟ فقال عليه السلام: «إنّ الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار، فكان الذي يأتيه من قِبَل الله عزَّ وجلَّ مثل الذي يراه بعينه»[٥].

الدعوة السريَّة

أقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكّة ثلاث سنين يَكتُم أمره [٦] وهو يدعو إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ، وذلك لأنّ أجواء مكّة لم تكن في تلك الظروف المناسبة للمجاهرة بالدعوة علناً، فكان في هذه السنوات يدعو سرّاً كلّ من يرى فيه استعداداً لقبول دعوته، ويدعوهم إلى توحيد الله والإقرار بنبوّته. وفي هذه المدّة تناهى خبره إلى أسماع قريش، فكان إذا مرّ بملأ من قريش قالوا: إنّ فتى ابن عبد المطّلب ليُكلَّم من السماء.

ولكن بما أنّه لم يكن يُجاهِر بدعوته في الوسط العامّ، لذلك لم يكونوا على علمٍ بفحوى دعوته، وبالنتيجة لم يصدر أيّ ردّ فعل تجاهه.

وفي هذه المدّة آمن بدعوته عدد من الأشخاص، ثمّ إنّ أحد هؤلاء المسلمين الأوائل وهو الأرقم وضع داره ـ التي كانت تقع عند قاعدة جبل الصفّار ـ تحت تَصرُّف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فجعل منها صلى الله عليه وآله وسلم بمثابة مقرّ لهم كانوا يجتمعون فيها أثناء مدّة الإستخفاء، إلى أن جاء أمر الله بأنّ يَصْدَع بالدعوة.

(٤) نظراً إلى الاستعدادات التي كانت لدى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وما كان يتلقّاه من رسائل ومؤشّرات غيبيّة، فلا معنى للقول بأنّه قد فوجئ بنزول الوحي وأصابه الخوف والاضطراب.. ولم يكن لقاؤه بجبرائيل في غار حراء هو اللقاء الأوّل بحيث يُصاب من جرّائه بالخوف، وكيف يُمكن القول بأنّه سكن واطمأنّ قلبه استناداً إلى تأكيد نبوته من رجلٍ مسيحيّ أعمى وهو ورقة بن نوفل!!

(٥) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج ١٨، ص٦, ٢٦٢- الصدوق، محمّد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: مؤسسة النشر الإسلاميّ، ١٣٦٣هـ، ج٢، ص٣٤٤.

(٦) الحلبي، عليّ بن برهان الدين، السيرة الحلبية: دار المعرفة، بيروت، ج١، ص٤٥٦ ـ ٤٥٧.

وكانت أمام الرسول ﷺ نقطتان هامّتان في هذه المرحلة وهما:

١ـ بناء النواة الجهاديّة الأولى للدعوة.

٢ـ حماية هذه النواة والمحافظة عليها.

أوّل من أسلم من النساء والرجال

يتّفق المؤرّخون على أنّ خديجة عليها السلام أوّل امرأة آمنت برسالة النبيّ ﷺ؛ لأنّها كانت أوّل من يطّلع على الأمر بعد عودة النبيّ ﷺ من غار حراء.

وكذلك الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وكان عمره آنذاك عشر سنوات، أو اثنتي عشرة سنة.

وكون الإمام عليّ عليه السلام أوّل الناس إسلاماً يُؤيّده الكثير من الأدلّة ومنها:

١. تصريح النبيّ ﷺ بذلك: قال ﷺ في محضر جماعة من المسلمين: «أوّلكم وروداً عليَّ الحوض، أوّلكم إسلاماً، عليّ بن أبي طالب» ٨[١].

ونقل كبار العلماء والمحدّثين ما يلي: "استنبىء النبيّ يوم الإثنين وصلّى عليّ يوم الثلاثاء"[٢].

٢. تصريح الإمام عليّ عليه السلام: قال عليه السلام: «لم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشمّ ريح النبوّة»[٣].

وتحدّث عليه السلام في موضعٍ آخر عن سبقه إلى الإسلام، قائلاً: «اللهم إنّي أوّل من أناب، وسمع وأجاب، لم يسبقني إلّا رسول الله بالصلاة»[٤]. وقد قال هذا الكلام في معرض احتجاجه على خصومه في مناسبات متعدّدة من دون أن يعترض أحد على ذلك، أو يجرؤ على الإنكار.

٣. أورد العلامة الأميني في كتابه الغدير أقوالاً عن العشرات من كبار الصحابة والتابعين وغيرهم، وعن العشرات من مصادر الفريقين، تؤكّد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو أوّل الأمّة قاطبةً إسلاماً وإيماناً، ومنها ما رواه عن أحمد بن حنبل أنّ النبيّ ﷺ قال: «عليّ بن أبي طالب أوّل أصحابي إسلاماً»[٥].

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: بيروت، دار الكتاب العربيّ، ج٢، ص٨١.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ، ج٢، ص٥٧.

(٣) السيّد الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

(٤) م.ن، الخطبة ١٣١.

(٥) راجع: موسوعة الغدير للعلامة الأميني الجزء الثالث والعاشر.

والــذي يبــدو من النصوص أنّ علياً عليه السلام سبق خديجـة إلى الإسلام لكونه ملازمـاً للنبيّ صلى الله عليه وآله لا يُفارقه حتّى وهو في غار حراء.

والسبـق إلى الإسـلام أفضليـة أكّد عليها القـرآن الكـريم مُعلِنـاً: ﴿**وَالسَّـابِقُونَ السَّـابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾[٦].

شبهة الأسبقيّة في الإسلام

بعد هذا العرض يُمكن الجزم بأنّ ادّعاء سبق غير علي عليه السلام إلى الإسلام، ادّعاء غير صحيح تُبطله كلّ النصوص والحقائق التي ذكرناها.. على أنّ هذا الادعاء قد جاء مُتأخِّراً عن عهد الخلفاء الأربعة، وتمّـت صياغته بعد شهادة أمـير المؤمنين عليه السلام، ولربما يكون قد حصل ذلك حينما كتب معاوية إلى ولاته على الأقطار؛ يأمرهم بأن لا يَدَعوا فضيلة لعليّ عليه السلام إلّا ويأتوه بمثلها لغيره من الصحابة.

ومن هنا، فإنّنا نعتقد: أنّ القول بأوّلية إسلام بعض الصحابة غير عليّ عليه السلام موضوع في وقت مُتأخِّر تزلُّفاً للأمويّين.

وأمّـا القـول بأنّ علياً عليه السلام هو أوّل من أسلم من الصبيان لا مـن الرجال، فهو قول غريب، وذلك لما يلي:

__أوّلاً:__ إنّـه قـد جـاء في بعض النصوص المرويّة عن عليّ عليه السلام وعـن غيره التعبير بأنّـه: «أوّل رجل أسلم»، ممّا يعني أنه كان حينئذٍ رجلاً بالغاً [٧].

__ثانيـاً:__ إنّـه وإن كان قـد أسلـم وعمره عشـر سنـوات، إلّا أنّه من الواضـح: أنّ الرجوليّـة والبلوغ لا ينحصران بالسنّ.

علـى أنّ ثمّـة أقـوالاً كثيرة في سنّ عليّ عليه السلام حـين إسلامه بأنّه كان يتراوح بـين ١٢ سنة و ١٦ سنة، وبعضهم يتجاوز ذلك أيضاً [٨]. فكيف يصحّ وصفه بالصبيّ؟

__ثالثـاً:__ إنّ سـنّ البلـوغ قد حُدّدت بعد الهجـرة في غزوة الخندق، أمّا قبل ذلك فقـد كان المُعتمد هو التمييز والإدراك، وعليه يدور مدار التكليف والدعوة إلى الإسلام والإيمان وعدمه.

__رابعاً:__ لو كان الأمر كما ذكروه، فلا يبقى معنى لقول النبيّ صلى الله عليه وآله عنه: "إنّه أوّل من أسلم".

(٦) الواقعة: ١٠ ـ ١١.

(٧) سيرة ابن إسحاق، ص١٣٨.

(٨) من الذين صرّحوا بذلك: الحافظ عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، والمحدّث الكليني، والحسن البصري، والأسكافي وغيرهم.

دعوة عشيرته

بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة، نزل ملك الوحي يحمل أمر الله تعالى إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليُنذر عشيرته الأقربين: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ❖ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ❖ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ**﴾(1) .

يصنع طعاماً ويدعو له بني عبد المطّلب ليُبلِّغهم، فصنع عليّ عليه السلام الطعام، ثمّ دعاهم وهم يومئذٍ أربعون رجلاً، وفيهم أعمامه أبو طالب، وحمزة، وأبو لهب، وكان الطعام لا يكفي لهذا العدد في الظروف العادية، ولكن القوم أكلوا حتّى شبعوا جميعاً.

فقام أبو لهب وقال: لقد سحركم صاحبكم. فانفضّ القوم ولم يُكلِّمهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي اليوم التالي أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عليّاً أن يفعل كما فعل آنفاً. وبعد أن أكلوا وشربوا، تكلّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إنّي والله ما أعلم شابّاً من العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إنّي جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله عزَّ وجلَّ أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤمن بي ويؤازرني على أمري فيكون أخي ووصيّي وخليفتي؟».

فأمسك القوم وأحجموا عنها جميعاً. فقام عليّ عليه السلام وكان أصغرهم سنّاً فقال: «أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك على ما بعثك الله به». فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده، ثمّ قال: «إنّ هذا أخي ووصيّي ووزيري وخليفتي فيكم. فاسمعوا له وأطيعوا» (2).

هذه القضية تنتهي بنا إلى مطلب أساس وهو أنّ "النبوّة" و"الإمامة" يُمثِّلان مبدأً متماسكاً لا يقبل التجزئة، وذلك لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد طرح قضية الإمامة والقيادة المستقبليّة للمسلمين منذ السنوات الأولى لرسالته، ومنذ اليوم الذي صرّح فيه بنبوّته.

وفي ضوء ترتيب نزول السور يُمكن الإستنباط أنّ دعوة عشيرته جاءت قبل الدعوة العلنيّة بمدّة (3).

(1) الشعراء: ٢١٤ـ٢١٦.

(2) هذه القضية معروفة بين علماء المسلمين باسم "بدء الدعوة-يوم الدار..". وقد نقلها عدد كبير من المفسّرين والمؤرّخين منهم: محمّد بن جرير الطبري في تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٠٧، وابن الأثير في الكامل في التاريخ، ج٢، ص٦٣، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، ج١٣، ص١٢٢، والشيخ المفيد في الإرشاد، ص٢٩، وغيرهم الكثير.

(3) نزلت سورة الشعراء التي فيها آيات الإنذار بعد سورة الواقعة، ثمّ نزلت بعدها سور: النمل، القصص، الإسراء، هود، يوسف، وبعد ذلك نزلت سورة الحجر التي جاء فيها الأمر بإعلان الدعوة "اصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ"

وفي الختـام نُشـير إلى أنّ أبـا طالب قـال ردّاً علـى أبي لهب عند دعـوة العشـيرة إلى الإسلام: "يا عـورة! والله لننصرنّـه ثمّ لنعيننّه، يا ابن أخـي إذا أردت أن تدعو إلى ربّك فأعلمنا حتّى نخرج معك بالسـلاح"(٤). وبهـذا أعلن عميد البيت الهاشميّ قرار هذا البيـت بحماية النبيّ ﷺ وعدم تسليمه إلى المكذِّبين برسالته.

خلاصة الدرس

- كان النبـيّ ﷺ مُسـدَّداً مُؤيّداً قبل البعثة المباركة من قبل الله تعـالى، وأُنزِلت عليه النبوّة وهو ابن أربعين سنة في شهر رجب، ولم يشكّ النبيّ ﷺ في نبوّته لحظة، ولم يتّكئ إلّا على التسديد الإلهيّ والوحي الربانيّ.
- أوّل مـا نـزل من القرآن حسب النصوص هو مطلع سورة العلق. وكان أوّل من آمن به من الرجال الإمـام عليّ عليه السلام ومن النساء زوجته خديجة حتّـى تكامل المسلمون أربعين شخصاً خلال ثلاث سنوات من النبوّة.
- أمـر النبيّ ﷺ بإعلان الدعوة بـدءً بعشيرته الأقربين، وأسفر الاجتماع ببني عبد المطّلب وبني هاشـم عن إعـلان النبوّة والولاية معاً، وأعلن أبو طالب حمايتـه للنبيّ ﷺ ودعوته بالرغم من وقوف أبي لهب في الموقع الأوّل من المواجهة.

---

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٨.

للمطالعة

صيام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

نظراً للأهميّة البالغة التي يحتلّها الصوم في الاسلام، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان شديد التعلّق به كأحد الوسائل الأساس للتقرُّب إلى الله ونيل رضوانه، فإنّه صلى الله عليه وآله وسلم فضلاً عن أدائه فرض الصيام في شهر رمضان، كان يُكثر من الصيام المستحبّ، فقد صام كلّ يوم فترة من الزمن، ثمّ صام يوماً وأفطر يوماً ما شاء الله من عمره، ثمّ صام شعبان والأيّام البيض. أي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر. من كلّ شهر، وقد التزم صلى الله عليه وآله وسلم صيام شهر شعبان كاملاً وأوّل خميس وأوسط أربعاء، وآخر خميس من كلّ شهر.

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوّل ما بُعث يصوم حتّى يُقال: ما يُفطر، ويُفطر حتّى يُقال ما يصوم، ثمّ ترك ذلك وصام يوماً وأفطر يوماً وهو صوم داوود عليه السلام، ثمّ ترك ذلك وصام الثلاثة أيّام الضحى، ثمّ ترك ذلك وفرّقها: في كلّ عشرة يوماً خميسين بينهما أربعاء، فقُبض وهو يعمل ذلك»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «صام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدهر كلّه ما شاء الله، ثمّ ترك ذلك وصام صيام داوود عليه السلام يوماً لله ويوماً له ما شاء الله، ثمّ ترك ذلك، فصام الإثنين والخميس ما شاء الله، ثمّ ترك ذلك وصام البيض ثلاثة أيّام من كلّ شهر»[2].

وعنه أيضاً عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصوم شعبان وشهر رمضان يصلهما.. ويقول لهما: شهر الله وهما كفّارة لما قبلهما وما بعدهما من الذنوب»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان العشر الأواخر أي من شهر رمضان

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي، ج٤، ص٩٠.

(٢) محمّد بن الحسن، الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج٤، ص١٢٣.

(٣) السبزواري، ذخيرة المعاد، ج ١، ص ١٢٥.

اعتكف في المسجد وضُرِبت له قبّة من شعر وشمّر المِئْزَر وطوى فراشه»[٤] .

وفي حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام «... فلم يزل يعتكف صلى الله عليه وآله وسلم في العشر الأواخر من رمضان حتّى توفّاه الله» [٥].

ورُوي: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل شهر رمضان أطلق كلَّ أسير، وأعطى كلَّ سائل [٦].

(٤) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي، ج٤، ٥٧١.

(٥) المجلسيّ، البحار، ج٤٩، ص٧.

(٦) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص١٦.

٨

الدرس الثامن

الدعوة العلنيّة ومواجهة قريش

الدرس الثامن

الدعوة العلنيّة ومواجهة قريش

أهداف الدرس:

١. أن يُوضِّح الطالب البداية الأولى للمواجهة وطبيعتها.

٢. أن يُعدِّد الأساليب التي اعتُمِدَت في مواجهة النبيّ صلى الله عليه وآله.

٣. أن يتبيَّن دور الإمام عليّ عليه السلام في الدعوة.

٤. أن يتعرّف إلى الحصار المفروض على النبيّ صلى الله عليه وآله وأصحابه في شعب أبي طالب.

بداية الدعوة العلنيّة

بعد مدّة من بدء الرسول صلى الله عليه وآله للدعوة السرِّيَّة إلى الإسلام، وبعد بناء القاعدة الصلبة للدعوة المتمثِّلة بأولئك الروّاد الأوائل من المسلمين الذين انتموا للإسلام في أيّام غُرْبَته، تلقّى النبيّ صلى الله عليه وآله أمراً من الله تعالى بالمجاهرة بالدعوة وعدم الخوف من المشركين: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ❖ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**﴾[1].

فأظهر أمره وقال: «إنّي رسول الله أدعوكم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضرّ، ولا تخلق ولا ترزق ولا تُحيي ولا تُميت»[2].

ومنذ ذلك الوقت دخلت دعوة الرسول صلى الله عليه وآله مرحلة جديدة؛ إذ أخذ يدعو إلى التوحيد في التجمُّعات وفي موسم الحجّ في منى وبين القبائل المجاورة لمكّة.

محاولات قريش

كان ردّ فعل قريش أمام جهره صلى الله عليه وآله بالدعوة، أن أدبروا عنه وتنكّروا لدعوته، خصوصاً بعدما ذكر آلهتهم وعابها. وبما أنّ النظام القبليّ الذي كان سائداً في مكّة، كان يعني أنّهم لو تعرّضوا لمحمّد صلى الله عليه وآله لواجهوا خطر الانتقام من بني هاشم، لهذا لجأوا إلى المحاولات التالية، وذلك بأسلوب مُتدرِّج:

---

(١) الحجرات: ٩٤-٩٥.

(٢) الطبرسي، إعلام الورى، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، ط٣، ص٣٩.

١. استثمار نفوذ عمّه أبي طالب: وما يكنّه النبيّ ﷺ من احترام له لمنعه ﷺ من مواصلة دعوته، والطلب إليه بالتوقُّف عن سبّ آلهتهم وتقبيح ديانتهم.

٢. الترغيب والترهيب: التعامل مع أبي طالب بالتهديد تارةً، وبعرض المال والثروة والرئاسة تارةً أخرى. وبعدما يئسوا من الحصول على النتيجة المطلوبة، عرضوا على أبي طالب أن يعطوه عمارة بن الوليد ـ وكان أجمل وأقوى وأشعر فتى في قريش ـ وأن يُسلِّمهم في مقابل ذلك محمّداً ﷺ ليقتلوه، فرفض أبو طالب ووبّخهم بقوله: «لبئس ما تسومونني عليه، أتُعطوني ابنكم أغذوه لكم وأُعطيكم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبداً». وجاؤوه مرّة وهدّدوه بالقتل هو وابن أخيه، فما كان من رسول الله ﷺ إلّا أن قال: «والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتّى يُظهِرَه الله أو أهلك فيه، ما تَركتُه»[٣].

٣. مفاوضة النبيّ ﷺ ومساومته مباشرة: عن طريق إغرائه بالمال والجاه، ولكن النبيّ ﷺ رفض عرضهم؛ لأنّه لا طمع له بالمال والسلطان.

٤. نهي الناس عن الالتقاء بالنبيّ ﷺ: والاستماع إلى ما يتلوه من قرآن. وقد تحدّث القرآن عن ذلك: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)[٤].

٥. التعرُّض لشخص النبيّ ﷺ بالإيذاء المباشر: فرجموا بيته بالحجارة، وألقوا التراب على رأسه، ووضعوا الأشواك في طريقه وأمام داره. حتّى قال ﷺ: «ما أُوذي نبيٌّ مثل ما أُوذيت»[٥].

٦. اتّباع سياسة الإرهاب والتعذيب: والتنكيل بالصفوة المؤمنة.

٧. مواجهة النبيّ ﷺ: بالتكذيب، والسخرية، والاستخفاف والاستهزاء، ورميه بأنواع التهم من قبيل ساحر ومجنون، وأنّه يُفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وزوجه، وعشيرته. **﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾**[٦]. واتّهموه بأنّه يتعلّم عند رجل نصرانيّ اسمه جبر. وقد ردّ عليهم القرآن بقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)**[٧].

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٨، ص١٨٥.

(٤) فصّلت، الآية:٢٦.

(٥) المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٩، ص٥٦.

(٦) النحل: ١٠٣.

(٧) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج١، ص٣٧٥.

الحصار في شعب أبي طالب

بعـد مواقف الصمود تجـاه قريش من قبل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه، قـرّرت قريش مقاطعة بني هاشم، وفرضـ حصار اجتماعـيّ واقتصاديّ عليهم، وهو ما عُرِف بحصار الشعب، فقد اجتمع المشركون في دار الندوة وكتبوا وثيقة اتفقوا فيها على البنود التالية:

١. أن لا يُزوِّجوا أحداً من نسائهم لبني هاشم، وأن لا يتزوّجوا منهم.

٢. أن لا يبتاعوا منهم شيئاً، ولا يبيعوهم شيئاً مهما كان نوعه.

٣. أن لا يجتمعوا معهم على أمرٍ من الأمور.

٤. أن يكونوا يداً واحدة على محمّد وأتباعه(١).

<u>قدّرت قريش أنّ هذا الحصار سيؤدّي إلى أحد ثلاثة أمور:</u>

إمّـا قيام بني هاشم بتسليمهم النبـيّ ليقتلوه، وإمّا أن يتراجع النبيّ عـن الدعوة، وإما القضاء عليه وعلى جميع من معه جوعاً وعطشاً تحت وطأة الحصار.

استمرّ الحصار ثلاث سنوات، من السنة السادسة حتّى التاسعة للبعثة، وكان المسلمون خلاله يُنفقون من أموال خديجة وأبي طالب، حتّى نفدت واضطروا إلى أن يقتاتوا بورق الشجر، ولم يكونوا يجسرون علـى الخـروج من شعب أبي طالب إلّا في موسم العمرة في رجب، وموسم الحجّ في ذي الحجّة، فكانوا يشترون حينئذٍ ويبيعون ضمن ظروفٍ صعبة جدّاً(٢).

وكان الإمام عليّ عليه السلام أثناء هذه المحنة يأتيهم بالطعام سرّاً من مكّة من حيث يُمكِن.

وكان أبـو طالب يحرس النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه؛ خوفاً من أن يتسلّل أحد مـن المشركين إليه ويغتاله على حـين غفلـة، بل كان إذا حلّ الظـلام ينقل النبيّ من المكان الذي عَرف أهـل الشعب أنّه بات فيه، إلى مكانٍ آخر، ويجعل ابنه عليّاً عليه السلام في مكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حتّى إذا حصل أمرٌ أُصيب ولده دونه.

انتهاء أمد الحصار

وانتهـى الحصار بعدما أكلت الأرضة ما في صحيفة المشركين التي تعاقدوا فيها على الحصار، وقيام جماعـة منهم ممّن تربطهم ببنـي هاشم علاقات نسبيّة بنقض الصحيفـة وإلغاء مفاعيلها، ومنهم

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ،ج ٢، ص٨٧.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣١ ـ ٣٢.

مـن كان من الموقِّعين على الصحيفة، وبذلك عاد بنـو هاشم إلى مساكنهم [٣]. وكان النبيّ ﷺ قد أخـبر بأمـر الصحيفة بواسطة أبي طالب، وهي من كراماتـه ﷺ حيث نزل عليه جبرئيل بأمرٍ من الله تعالى يُخبره بما جرى على الصحيفة.

عام الحزن

في السنـة العاشرة للبعثة، وبعد خروج بني هاشم من الشعـب بمدّة قصيرة، تُوفّيت خديجة، وبعدها بمـدّة قصـيرة تُـوفّي أبو طالـب[٤]. فعَظُم ذلك علـى رسـول الله ﷺ واشتدّ حزنـه، وبوفاة هذين الشخصين اللّذين كانا عضداً وحرزاً وناصراً تتابعت عليه المصائب.

فخديجـة بالنسبة للنبيّ ﷺ كانت ضمن نطاق البيت والأسـرة الزوجةَ الوحيدةَ الحنون والمضحّية والحريصـة، وكانـت وزيرة صدق على الإسلام، وكان يسكن إليها. وبقـي ﷺ إلى آخر عمره يُكرم مثواهـا، ولا ينسـى سبقها في الإسلام وما تحمّلته من مشقّة ومكابدة في سبيل الدين، حتّى قال فيها: «مـا أبدلني اللّهُ خيراً من خديجة؛ لقد آمنت بـي حين كفر بي النـاس، وصدّقتني حين كذبني النـاس، وواستني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً»[٥].

أمّـا أبـو طالب فهو الذي رعى النبيّ ﷺ وتولّاه في طفولته وصباه، وكان الذّابّ والمدافع عنه في عهد رسالتـه، فكان يقف كالسدّ العظيـم أمام أحقاد المشركين وعدوانهم، ولمّا تُوفّي نالت قريش من رسول الله ﷺ، واجترؤوا عليه حتّى قال ﷺ: «ما نالت قريش منّي شيئاً أكرهه حتّى مات أبو طالب»[٦].

ولا شـكّ بأنّ أبـا طالب مات مُسلماً، وإن كان قد أخفى إسلامه كمـا قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ مثل أبي طالب كمثل أصحاب الكهف؛ أسرُّوا الإيمان وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم مرّتين»[٧].

ولم تكـن المساعـي المحمومة التي بذلها بعض الناس من أجل إثبات كفر أبـي طالب إلّا بسبب دوافع

(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٩٠.

(٤) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ج ٤، ص٢٨٧ في حاشية الإصابة.

(٥) ابن شهر أشوب، مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص١٦٧.

(٦) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج١، ص٤٤٨.

(٧) الإسراء: ١.

سياسيّة، وللانتقاص من مكانة الإمام عليّ عليه السلام، وإثبات ولادته من أبٍ كان يعبد الأصنام، حتّى وإن كان هو أوّل الناس إسلاماً. فلا جريرة لأبي طالب سوى أنّه والد عليّ عليه السلام.

الإسراء والمعراج

اختلف المؤرّخون في تأريخهما ما بين السنة الثانية من البعثة حتّى السنة العاشرة، ولكن الذي نقطع به أنّه حصل قبل وفاة أبي طالب والسيّدة خديجة.

وبحسب النصوص فقد أُسري بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم من مكّة إلى بيت المقدس، بمعجزةٍ خارقة للعادة، ثمّ عُرج به من هناك إلى السماوات بقدرة الله تعالى. وكان الهدف من هذين السفرين مشاهدة علائم وآيات عظمة الله في الكواكب والسماوات، ولقاء الملائكة وأرواح الأنبياء، ورؤية مشاهد الجنّة والنار، ودرجات أهل الجنّة والنار وما شابه ذلك.

وقد وصف الله تعالى الإسراء بقوله: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [1].

قال تعالى في المعراج بعد بيان المراحل التي مرّ بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿**لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**﴾[2].

ويرى علماء الإماميّة أنّ معراج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حصل بالروح والجسد معاً، وليس بالروح فقط. ودليلهم هو تصريح الآيات بلفظ العبد "فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى"[3]، والعبد يُطلق على الروح والجسد، وقوله تعالى: ﴿**مَا زَاغَ الْبَصَرُ**﴾[4] فالرؤية البصريّة تُطلق على رؤية الجسد دون رؤية الروح فقط، فضلاً عن أنّه لو كان بالروح فقط لما خرج أبو طالب والهاشميّون في طلبه صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) النجم: ١٨.

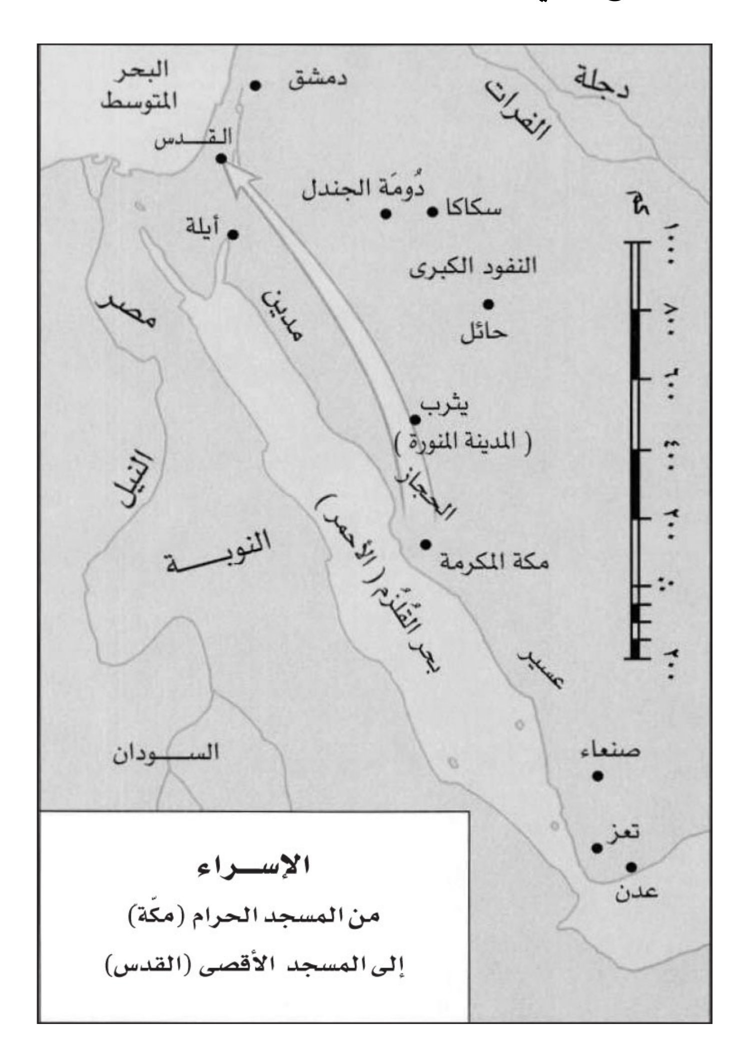
(٢) النجم: ١٠.

(٣) النجم: ١٧.

(٤) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٨، ص٢٩٠.

خلاصة الدرس

- عندمـا بدأت الدعوة العامّـة والعلنيّة لرسول الله ﷺ أخذ الملأ مـن قريش يُخطِّطون لتحجيم الرسـول ﷺ وحركة الرسالـة، وانتقلت المواجهة من الحرب البـاردة إلى حربٍ ساخنة تمثّلت بالاضطهاد، حتّى القتل والتهجير والحصار الشامل من أجل الإبادة التامّة.
- فشِـل مخطّط الحصار للنبيّ ﷺ، ومن معه في شعب أبـي طالب، وانتهى الأمر بانتصار النبيّ ﷺ وخروجه مع أصحابه من الحصار بعد سنوات مريرة.
- انتهـى الحصار وانتهـت بذلك أيّام حيـاة سنَدَين عظيمين للنبيّ ﷺ في دعوتـه وهما: زوجته الوفيّة خديجة، وعمّه أبو طالب، وسمّى رسول الله ﷺ ذلك العام بعام الحزن.
- في مكّـة المكرّمـة، كرّم الله تعالى نبيّه بمعجـزةٍ لم تكن لأحد من الأنبياء، وهـي معجزة الإسراء والمعراج، وكان ذلك بروح النبيّ ﷺ وجسده معاً.



الإســراء من المسجد الحرام مكّة إلى المسجد الأقصى القدس

للمطالعة

قراءة النبيّ ﷺ للقرآن

القرآن كتاب الله الذي نزل على عبده ورسوله محمّد ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور. وقد تَكفَّل القرآن من خلال آياته المباركة بهداية الناس إلى الحقّ والعدل والخير في جميع شؤونهم، "ومن ابتغى الهُدى في غيره، أضلّه الله، فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء" [1].

وقد شدّد الإسلام على الاهتمام به والاعتصام بحبله، من خلال قراءته وتدبّره ووعي تعاليمه وتجسيد مفاهيمه في الحياة الفردية والاجتماعيّة وغيرها. قال تعالى: ﴿**هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[2].

ونظراً لمكانة القرآن في الإسلام فقد كان رسول الله ﷺ شديد العناية به: تلاوةً وتعليماً وحضّاً على تعاهده ورعايته. وكان هدفه من تلاوة القرآن أن يُحرز المزيد من القُربى إلى الله سبحانه، وليكون قدوة للمؤمنين في تعاهد أمره، وتدبّر آياته، والحرص عليه.

وهذه بعض الروايات التي تُشير إلى مدى اهتمامه ﷺ بالقرآن:

كان ﷺ لا يرقد حتّى يقرأ المسبِّحات ويقول: «في هذه السور آية هي أفضل من ألف آية»، قالوا: وما المسبِّحات؟ قال ﷺ: «سورة الحديد والحشر والصفّ والجمعة والتغابن».

وعن أُمّ هانىء: كنت أسمع قراءة النبيّ ﷺ بالليل وأنا على عريشي.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: "كان رسول الله ﷺ لا يحجزه عن قراءة القرآن إلا الجنابة" [3].

ولشدّة تفاعله مع القرآن كان يبكي عندما يقرأ بعض آياته، فقد روى ابن مسعود قال: قال النبيّ ﷺ لي: "إقرأ عليَّ القرآن"، فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزل؟! فقال ﷺ: "إنّي أحبّ

(١) الترمذي، سنن الترمذي، ج٤، ص٢٤٥.

(٢) آل عمران: ١٣٨.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٨، ص٦٨.

أنْ أسمعــه من غيري"، فقرأت عليــه سورة النساء حتّى جئت إلى هذه الآية ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّـةٍ بِشَـهِيدٍ وَجِئْنَـا بِـكَ عَلَى هَؤُلاء شَـهِيدًا**﴾[٤] قال صلى الله عليه وآله وسلم: «حسبك الآن»، فالتفــتّ إليه فإذا عيناه تذرفان[٥].

وإلى كـثرة مـا كان يقرأ من القـرآن يُشير أنس بن مالك فيقول: إنّ رســول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجد شيئاً من وجع، فقيل له: يا رسول الله اشتدّ عليك الوجع، وإنّا نرى أثر الوجع عليك.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "أما مع ما ترون، فقد قرأت البارحة السبع الطوال، أي من البقرة إلى الأنفال". وهكذا كان صلى الله عليه وآله وسلم دؤوباً على تلاوة كتاب الله، شغوفاً به، فلم يترك القراءة حتّى في حالات مرضه.

(٤) النساء: ٤١.

(٥) المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٩، ص ٢١٦.

٩

الدرس التاسع

أحداث ما بين البعثة وآلهجرة

الدرس التاسع

أحداث ما بين البعثة والهجرة

أهداف الدرس:

١. أن يتعرَّف الطالب إلى أطروحة الدعوة في مكّة.

٢. أن يُعدِّد الخطوات التي اتّبعها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قبل الانتقال إلى المدينة.

٣. أن يُعدِّد الخطوات التي اتّبعها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قبل الانتقال إلى المدينة.

٤. أن يُدرِك أهميّة بيعة العقبة في نشر الدعوة.

أطروحة الدعوة الإسلاميّة في مكّة

لم يتناول التشريع الإسلاميّ في العهد المكّي قضايا الدولة والحُكم والنظام السياسيّ بصورة مباشرة، لأنّ المسلمين في مكّة لم يكونوا مجتمعاً سياسيّاً، وإنّما كانوا جماعة عقيديّة تحكمها علاقات تتراوح بين الاستغراب، والجفاء، والعداء من مجتمعها.

فكانت مفردات الدعوة وأطروحتها مقصورة في مكّة على القضايا الأساس الكبرى: قضية الألوهيّة والتوحيد، وقضية النبوّة العامّة ونبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وقضيّة الحياة بعد الموت البعث والمعاد، وقضيّة عدل الله تعالى، ورحمته، وقدرته، وعلمه، وسائر صفاته تعالى. كما كانت تشتمل على المسألة الاجتماعيّة، الفقراء والأغنياء، والظلم.

ولكن مع ذلك حمل العهد المكّي - في القرآن والسيرة - إشارات إلى طبيعة الدعوة الإسلاميّة، من الناحية السياسيّة، وبعض الإشارات إلى المستقبل، ونزل من القرآن بمكّة إثنتان وثمانون سورة، على ما رواه محمّد بن حفص بن أسد الكوفيّ عن ابن عبّاس. وكان أوّل ما نزل على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على بعض الروايات: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ ثمّ ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ ثمّ ﴿**وَالضُّحَى**﴾ ثمّ ﴿**يا أيّها المُزَّمِّل**﴾ ثمّ ﴿**يا أيُّها المُدَّثِّر**﴾ ثمّ فاتحة الكتاب... ثمّ العنكبوت.

ورُوي عن ابن عبّاس: " أنّ القرآن كان ينزل مُفرّقاً، لا ينزل سورة سورة، فما نزل أوّلها بمكّة أثبتناها بمكّة وإن كان تمامها بالمدينة، وكذلك ما نزل بالمدينة، وإنّه كان يعرف فصل ما بين السورة والسورة

إذا نزل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فيعلمون أنّ الأولى قد انقضت وابتُدِئ بسورة أخرى" [١].

الهجرة إلى الحبشة

لمّا رأت قريش دخول خلقٍ عظيم في الإسلام بدأت بالمواجهة الفعليّة. وعمل صناديد قريش على إنزال أشدِّ أنواع العذاب على المسلمين، فكان ممّن عُذِّبَ في الله عمّار بن ياسر، وياسر أبوه، وسُميَّة أمّه، حتّى قَتل أبو جهل سُمَيّة، فكانت أوّل شهيدة في الإسلام.

عندها أمر النبيّ ﷺ المسلمين بالهجرة إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة وقال لهم: "إنّ بها مَلِكاً لا يُظلم عنده أحد" [٢].

وكان عددهم في أرض الحبشة ثلاثة وثمانين ما بين رجل وامرأة عدا الأطفال، وكان في مقدّمتهم جعفر بن أبي طالب. فأرسلت قريش وفداً لاستردادهم، فواجههم النجاشيّ بالرفض بعدما استمع من المسلمين إلى حقيقة الإسلام وعظمته.

وأهمّ الدوافع للهجرة كان:

- الاضطهاد الشديد الذي وقع على المسلمين.
- والمحاولات القاسية التي بذلها المشركون لفتنتهم آملين رجوعهم عن الدين الحقّ وارتدادهم.
- فضلاً عن التبشير بالإسلام ومبادئه وأهدافه وأحكامه، والترويج له والتعريف به خارج الجزيرة العربيّة.

سفره إلى الطائف للدعوة

عزم النبيّ ﷺ على التوجُّه إلى الطائف لدعوة أهلها إلى الإسلام، لعلّه يلتمس منهم النصر والمِنعة، وبعد أن اشتدّ أذى قريش له إثر وفاة خديجة وأبي طالب، وكان ذلك في السنة العاشرة من البعثة، وأقام في الطائف عشرة أيّام يتجوّل فيها ويدعو أهلها إلى الإسلام، ومعه زيد بن حارثة [٣].

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي،ج ٢، ص٣٣ ـ ٣٤.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري،ج ٢، ص٢٢٢.

(٣) م.س. الطبري، ج٢، ص٢٣٠.

تعامل أهل الطائف مع الرسول الأعظم ﷺ

واجهوه ولم يسمعوا منه، بل جلسوا في الطريق يرمونه بالحجارة حتّى جُرِح في رأسه، فانصرف راجعاً إلى مكّة.

هدف السفر إلى الطائف

وكان الهدف من هذا السفر الإعداد للمستقبل باعتبار أنّ الطائف هي البلد الثالث الذي له موقعه ونفوذه الخاصّ في المنطقة، نظراً لوجود قبيلة كبيرة فيها هي ثقيف.
وربما يكون لهجرته إلى الطائف أهداف أخرى، كإيجاد قاعدة لدعوته يرتكز عليها تكون قريبة من مكّة، أو إلقاء حجّة عليهم، وكل ذلك يرجع إلى أنّ الرسول ﷺ كان يخطو في دعوته بخطوات هادفة ومدروسة.

انتشار الإسلام في يثرب

منذ السنوات الأولى للدعوة العلنيّة للرسول ﷺ في مكّة، تناهت أخبار بعثته إلى أسماع أهالي يثرب بواسطة المسافرين، وكان بعضٌ منهم قد قابله في مكّة وأسلم، ولكنّهم ماتوا أو قُتلوا بعد مدّة [1].

وفي السنة الحادية عشرة للبعثة التقى رسول الله ﷺ بستّة من أشراف الخزرج في موسم الحجّ في منى، ودعاهم إلى الإسلام، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنّه النبيّ الذي كان يوعدكم به اليهود، فلا يسبقنّكم إليه أحد. فأجابوه وقالوا له: إنّا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم العداوة والشرّ مثلما بينهم، فعسى أن يجمع الله بينهم بك، فتُقدِم عليهم وتدعوهم إلى أمرك. فلمّا قدِموا المدينة أخبروا قومهم بالخبر، فما دار حولٌ إلّا وفيها حديث رسول الله ﷺ [2].

ونجح تخطيط النبيّ ﷺ الذي استهدف من هذا الاجتماع حثّ هؤلاء الأشخاص على القيام بنشاط في بلادهم؛ لتهيئة الجوّ وخلق مناخ مؤيِّد ومتعاطف مع الدعوة ومبادئها الجديدة في المدينة.

(١) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج ٢، ص٦٧.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٢٥.

بيعة العقبة الأولى

وعندما حلّ موسم الحجّ في العام الثاني التقى صلى الله عليه وآله وسلم مع اثني عشر رجلاً من اليثربيّين، واجتمع بهم سرّاً في وادٍ ضيّق بالعقبة بين مكّة ومنى، وهي العقبة الأولى [٣]، وقد أعلنوا فيها إيمانهم واستعدادهم للعمل على نشر الإسلام، وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك.

فلمّا أرادوا الانصراف إلى بلدهم، بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معهم مصعب بن عمير من أجل أن يُعلِّمهم الإسلام، ويُفقّههم في الدين، ويجعل منهم قوّة أكثر فاعليّة ودقّة في نشر الدين الجديد في صفوف أهل المدينة.

استطاع مصعب بن عمير، بفعل وعيه وخبرته بشتّى أساليب العمل والتبليغ، أن يقوم بواجبه كما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. وكان عدد المسلمين في المدينة يزداد يوماً بعد يوم، وأصبح جوّ المدينة العامّ مؤيِّداً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ومهيَّئاً لقدومه.

بيعة العقبة الثانية

وفي العام التالي، أي في السنة الثالثة عشرة من البعثة، وبعد مرور عام كامل على بيعة العقبة الأولى، عاد مصعب بن عمير إلى مكّة ومعه جمعٌ كبير من مسلمي المدينة، خرجوا مُستخفين مع حُجّاج قومهم المشركين.. ويبدو أنّ مصعباً قَبْل حضوره إلى مكّة، كان قد رتّب اجتماعاً بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبين مسلمي يثرب بعد انتهاء موسم الحجّ.

فالتقى بعضهم بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وواعدهم أن يجتمع بهم في العقبة في اليوم الثاني من أيّام التشريق ليلاً، وأمرهم بالحفاظ على سرِّيَّة الاجتماع. وفي الليلة المعيّنة تمّ الاجتماع بحضور الإمام عليّ عليه السلام والحمزة في الدار الذي كان ينزل فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو دار عبد المطّلب، فبايعوه على حمايته، وعلى أن يمنعوه وأهله ممّا يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، وعلى أن ينصروه ويقفوا إلى جانبه في الشدّة والرخاء، كما بايعوه على السمع والطاعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن يَدعُوا إلى الله ولا يخافوا في الله لومة لائم، وقد سُمِّيت هذه البيعة ببيعة العقبة الثانية[٤].

لقد نجح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في نهاية المطاف، بفعل إصراره على مواصلة الدعوة وعدم يأسه أو استسلامه

(٣) العقبة بمعنى الطريق الضيّق، ويُراد بها العقبة التي تقع عند نهاية منى إلى يمين مكّة.

(٤) المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٢٥ ـ ٢٦.

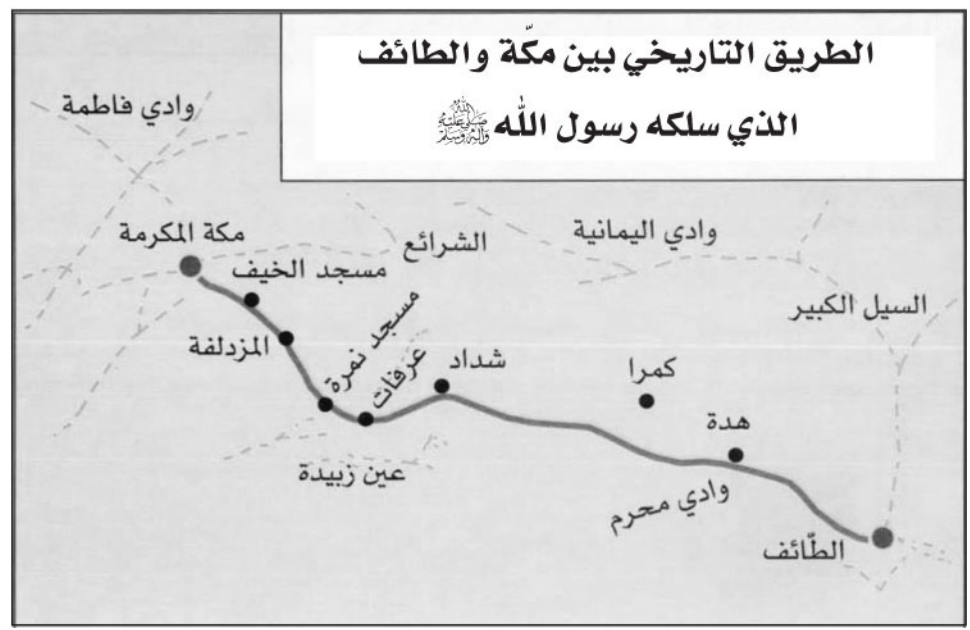
أمام الفشل الظاهريّ في الطائف وفي مكّة، وبفعل الثقة بوعد الله سبحانه بالنصر، في إيجاد القاعدة المناسبة التي يرتكز عليها الإسلام فكانت يثرب موضع اختياره الجديد.

وكانت بيعة العقبة هي الخطوة الرئيسة التي مهّد فيها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للهجرة إلى المدينة المنوّرة. وبالهجرة إلى المدينة تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل الدعوة وهي مرحلة بناء الدولة، والدفاع عن الإسلام.

خلاصة الدرس

- لم تشتمل الدعوة الإسلاميّة في العهد المكّي على مفردات سياسيّة صريحة، وإنّما كانت مفرداتها مقصورة على قضايا العقيدة الأساس، بالإضافة إلى جملة من المسائل الاجتماعيّة.
- بعد تعرُّض النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه للتعذيب الشديد والقتل والتشريد، أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة، نظراً لوجود ملك عادل فيها، فاحتضن «النجاشيّ» المسلمين المهاجرين ولم يُسلِّمهم إلى الوفد الذي أرسلته قريش لاستردادهم.
- بعد تعرُّض النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه للتعذيب الشديد والقتل والتشريد، أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة، نظراً لوجود ملك عادل فيها، فاحتضن "النجاشيّ" المسلمين المهاجرين ولم يُسلِّمهم إلى الوفد الذي أرسلته قريش لاستردادهم.
- أسفر جهاد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في الدعوة إلى الله عن إسلام بعض أهل يثرب، واستمرّت دعوته إليهم حتّى أسلم جمعٌ من أهلها، وقدم عليه- في العام الثالث عشر من البعثة- سبعون رجلاً وامرأتان وبايعوه على الدفاع والنصرة، وسألوه أن يخرج إليهم فيمنعوه كما يمنعون أبناءهم ونساءهم، ويحاربوا معه
- وينصروه، وكان ذلك من نتائج بيعة العقبة الأولى والثانية.

الطريق التاريخي بين مكّة والطائف الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم



للمطالعة

أذكار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُكثر من ذكر الله، بل ما فارق ذكر الله شفتيه المباركتين قطّ، ولم يُرَ إلّا ذاكراً مُسبِّحاً أو شاكراً مُستغفِراً.

رُوي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان يُكثر من قول: « سبحانك اللّهمّ وبحمدك، اللّهمّ اغفر لي إنّك أنت التواب الرحيم».

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم : "إنّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة» [١].

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يقوم من مجلس وإن خفّ حتّى يستغفر الله خمساً وعشرين» [٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر الله عزّ وجلّ في كلّ يوم سبعين مرّة ويتوب إلى الله عزّ وجلّ سبعين مرة» [٣].

وعنه عليه السلام أيضاً: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتوب إلى الله في كلّ يوم سبعين مرّة من غير ذنب، كان

(١) النسائي، السنن الكبري، ج٦، ص٩, ١١٤-الكليني، الكافي، ج٢، ص٥٠٤.

(٢) الكليني،الكافي،ج٢،ص٤٠٥

(٣) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج٧، ص١٨٠.

يقول: أتوب إلى الله» [1].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنّ للقلوب صداء كصداء النحاس فاجلوها بالاستغفار» [2].

وكما كان دائم الاستغفار كان دائم الشكر لله سبحانه على كلّ حال.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ورد عليه أمر يُسرّه قال: الحمد لله على هذه النعمة، وإذا ورد عليه أمر يغتمّ به قال: الحمد لله على كلّ حال» [3].

وعنه عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحمد الله في كلّ يوم ثلاثمائة وستّين مرّة... يقول: الحمد لله ربّ العالمين كثيراً على كلّ حال» [4].

وعن عليّ عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أتاه أمر يُسرُّه قال: الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وإذا أتاه أمر يكرهه قال: الحمد لله على كلّ حال» [5].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «ما استيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من نوم قط إلّا خرَّ لله عزّ وجلّ ساجداً» [6].

وعن عليّ عليه السلام: «كان النبيّ في كل يوم إذا أصبح وطلعت الشمس يقول: الحمد لله ربّ العالمين كثيراً طيّباً على كلّ حال، يقول ثلاثمائة وستين مرّة شكراً».

---

(١) ١١-الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٥، ص٣٢٠.

(٢) ١٢-المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٨٤.

(٣) ١٣- الكليني، الكافي، ج٢، ص٩٧.

(٤) ١٤- م.ن، ج٢، ص٥٠٣.

(٥) ١٥-الطوسي، الأمالي، ج ١ ص ٩٤.

(٦) ١٦- المجلسي، بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٥٣.

١٠

الدرس العاشر

الهجرة النبويّة إلى المدينة

الدرس العاشر

الهجرة النبويّة إلى المدينة

أهداف الدرس:

١. أن يسرد الطالب قصّة مبيت عليّ عليه السلام في فراش النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

٢. أن يستظهر دوافع هجرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة.

٣. أن يُعدِّد أركان المجتمع الذي بناه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة.

٤. أن يذكر أهمّ بنود الوثيقة بين أطياف المجتمع المدني.

المؤامرة ومبيت الإمام عليّ عليه السلام في فراش النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم:

علمت قريش بأمر البيعة رغم كلّ التكتّم الذي اتبعه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فعزمت على إلقاء القبض على المُبايعين، وشدّدت من إيذائها للمسلمين وتعذيبهم، وعلى إثر ذلك قال لهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: "إنّ الله عزَّ وجلَّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها"[1] وكان هذا إيذاناً بالهجرة إلى المدينة.

هجرة المسلمين إلى يثرب

فأخذ المسلمون يتوجّهون إلى يثرب رغم كلّ المشاكل والعراقيل التي وضعتها قريش أمامهم. ورأت قريش في هذه الهجرة خطراً عليها لِما يُشكِّله المهاجرون مع أهل المدينة من قوّة تستطيع أن تقف في وجه قريش ومصالحها، خاصّة أن تجارتها إلى الشام تمرّ عبر المدينة، فأخذت تمنع المسلمين من الهجرة وتلاحقهم.

وعلى الرغم من كلّ المضايقات تمكّن معظم المسلمين من الهجرة، ولم يبقَ في مكّة بعد بيعة العقبة بفترة وجيزة سوى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام وعدد قليل من المسلمين.

قرار المشركين بالتخلص من النبي صلى الله عليه وآله وسلم

بقي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في مكّة ينتظر الإذن الإلهيّ بالهجرة. وشعرت قريش بحجم الخطر فيما لو التحق

---

(١) ابن هاشم، السيرة النبويّة، ج٢، ص١٢٣.

النبيّ ﷺ بأصحابه، خاصّة بعدما قُدّرت أنّ المدنيّين سيحمونه وينصرونه بعدما بايعوه، فاتخذت قراراً حاسماً بالتخلّص من النبيّ ﷺ قبل فوات الأوان، واستطاعت أن تنتزع قراراً بمشاركة كلّ قبائل قريش في عمليّة الاغتيال، من أجل أن يتفرّق دمه في القبائل كلّها؛ فلا يعود بإمكان بني هاشم أن يثأروا لدمه، ولكنّ الله تعالى أخبر رسوله بهذه المؤامرة(٢)، وأمره بالخروج ليلاً من مكّة وأن يجعل عليّاً عليه السلام مكانه ليبيت على فراشه من أجل التمويه والإيهام، وليردّ كيدهم عليهم، فخرج رسول الله ﷺ إلى غار ثور وبات عليّ عليه السلام على فراشه تلك الليلة(٣).

اقتحام المشركين لدار الرسول ﷺ

وعندما اقتحم المشركون دار النبيّ ﷺ وجدوا أنفسهم أمام عليّ عليه السلام، وكان النبيّ ﷺ قد خرج قبل ذلك من بينهم وتوجّه نحو غار ثور وبقي فيه ثلاثة أيّام، إلى أن تمكّن من الوصول إلى قرية قباء في طريق المدينة المنوّرة، برغم ملاحقة قريش له.

ونظراً للتضحية الكبرى التي قدّمها الإمام عليّ عليه السلام، أنزل الله تعالى بحقّه قوله: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾**(٤)

الرسول ﷺ في المدينة

غادر النبيّ ﷺ الغار قاصداً يثرب في شهر ربيع الأوّل بعدما كان قد أمضى ثلاث عشرة سنة في مكّة، بعدما ترك عليّاً عليه السلام ليؤدّي الودائع التي كانت عنده للناس، ولتهيئة مستلزمات هجرة ابنته فاطمة وعدد آخر من النساء والرجال من بني هاشم (٥).

(٢) ذكر الله تعالى لنبيّه الكريم هذه المؤامرة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ سورة الأنفال: ٣٠.

(٣) رغم أنّ قريشاً جنّدت كلّ قواها للعثور على النبيّ ﷺ؛ ولكنّها بقدرة الله لم تعثر عليه لكونه منصوراً ومؤيّداً من الله تعالى حيث قال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سورة التوبة: ٤٠.

(٤) البقرة: ٢٠٧.

(٥) الطوسي، الأمالي، دار الثقافة، ط١، ١٤١٤هـ، ص٤٦٨.

فَوَصَل ﷺ أوّلاً إلى قُباء وهي منطقة على مقربة من يثرب، وتوقّف فيها بضعة أيّام في انتظار قدوم عليّ عليه السلام، وبنى في هذه المدّة مسجداً هناك[1].

ثمّ توجّه بصحبة عليّ عليه السلام وجماعة من بني النجار أخوال عبد المطّلب تجاه يثرب. ولدى وصوله إليها استقبله الناس بفرح وسرور بالغ، وكان ﷺ لا يمرّ بمكان إلّا وقام وجوه القبائل وأشرافها بأخذ زمام ناقته، طالبين منه النزول عليهم وهو يقول: «خلّوا سبيلها فإنّها مأمورة»[2] حتّى وصل إلى أرضٍ ليتيمين قرب دار أبي أيوب الأنصاريّ، وبنى في تلك الأرض المسجد النبويّ. ولأنّ الهجرة تُعتبر نقطة تحوُّل ومُنعطَفاً مُهمَّاً في تاريخ الإسلام أصبحت مبدأً لتاريخ الإسلام والمسلمين بتدبير النبيّ ﷺ؛ الذي أمر المسلمين أن يُؤرّخوا ابتداءً من شهر ربيع الأوّل، وهناك العديد من رسائل النبيّ ووثائقه وكتبه تُؤيّد ذلك.

دوافع الهجرة

لم تكن الهجرة إلى المدينة ردّ فعل لاضطهاد قريش، بل كانت فعلاً خطّط له النبيّ ﷺ لتكون المدينة قاعدة ارتكاز للدعوة، وأهمّ الدوافع التي أدّت للهجرة هي:

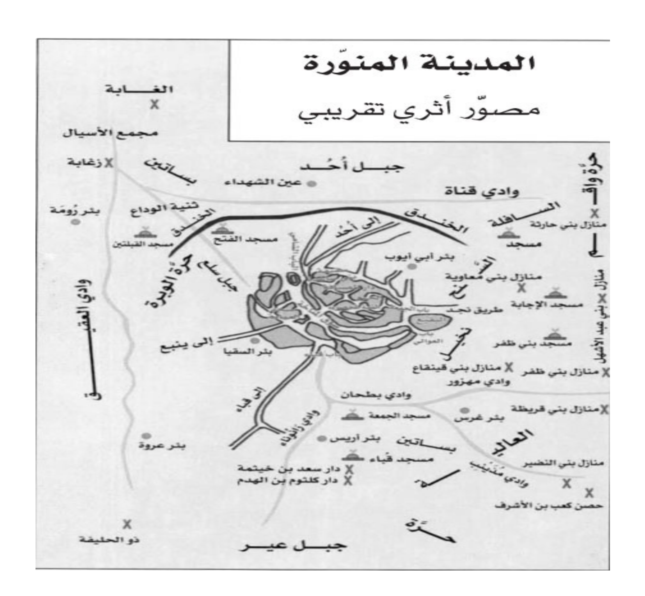
- إنّ مكة لم تَعُد مكاناً صالحاً للدعوة، ولم يبقَ أيّ أمل في دخول فئات جديدة في الدين الجديد في المستقبل القريب على الأقل، فكان لا بُدَّ من الانتقال إلى مكانٍ آخر ينطلق الإسلام فيه بحريّة بعيداً عن ضغوط قريش.
- وكان اختياره ﷺ للمدينة بسبب بعدها الجغرافيّ عن مكّة، ممّا يجعلها بمأمن من هجمات قريش المفاجئة والمباغتة من جهة، ومن جهة أخرى هي قريبة من طريق تجارة مكّة ـ الشام؛ بحيث يتمكّن النبيّ ﷺ من فرض سيطرته وممارسة نوع من الضغط السياسيّ والاقتصاديّ، وحتّى العسكريّ، على قريش في الوقت المناسب.
- ومن الناحية الاجتماعيّة كانت يثرب مركزاً للتنازع القبليّ، بين الأوس والخزرج واليهود، وهي تتطلّع إلى رجل تلتفّ حوله لينزع عنها إلى الأبد هذه العصبيّات المستعصية.
- وأمّا اقتصاديّاً فهي غنيّة بإمكانيّاتها الزراعيّة بما يُمكّنها من المقاومة في حال التعرُّض للضغوط الاقتصاديّة من قِبَل المشركين وغيرهم.

(١) الطبري، تاريخ الطبري،ج ٢، ص٢٤٩.

(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج٨، ص٣٤٠.

خلاصة الدرس

- مــن أهمّ الأحــداث في تأريخ الإسلام السياسيّ هو حدث الهجــرة المباركة، حيث تمّ بعدها إقامة الدولة الإسلاميّة بزعامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
- بــدأ الرســول صلى الله عليه وآله وسلم ببنــاء مسجد قباء، ثــمّ المسجد المعــروف اليوم بمسجــد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لجمع المسلمــين فيه وليكون مركزاً للدولة وانطلاق الدعــوة إلى أطراف العالم، ثمّ آخى بين المهاجرين والأنصار، واحتفظ بالإمام عليّ عليه السلام أخاً له من دون سائر المسلمين.



المدينة المنوّرة

مصوّر أثري تقريبي

١١

الدرس الحادي عشر

بناء الدولة والمجتمع في المدينة

الدرس الحادي عشر

بناء الدولة والمجتمع في المدينة

أهداف الدرس:

١. أن يُعدِّد أركان المجتمع الذي بناه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة.

٢. أن يذكر أهمّ بنود الوثيقة بين أطياف المجتمع المدني.

باشر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فور وصوله إلى المدينة بأعمال تأسيسيّة، ترتبط ببناء المجتمع السياسيّ الإسلاميّ، وبمستقبل الدعوة الإسلاميّة، وأبرزها:

أولاً: بناء المسجد

وهو أوّل مركز عُنيَ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بإنشائه، وقد كان مركزاً للعبادة، والتعليم، والحُكم والإدارة، ومقرّاً لحكومة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يُمارس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مُهمّات حكوميّة وإداريّة في المدينة في مكانٍ آخر غير المسجد.

وبعد إتمام بناء المسجد بُنيت إلى جانبه حُجرتان، لتكونا مساكن لرسول الله وزوجاته.

ثانياً: المؤاخاة

العمل المهمّ الآخر الذي أقدم عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في السنة الأولى للهجرة، هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، من أجل توكيد وحدة المسلمين والتغلُّب على التناقضات الداخليّة القائمة بين الأوس والخزرج، والتناقضات المتوقَّعة بين المهاجرين والأنصار، وفي سبيل تحطيم الاعتبار الطبقيّ، والاقتصاديّ، وعلاج مشكلة التفاوت في المستوى المعيشيّ، والتعبير العمليّ عن مبدأ المواساة والمساواة الإسلاميّ، فتآخى هو صلى الله عليه وآله وسلم مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وآخى بين المسلمين وكان يؤاخي بين كلٍّ ونظيره [1].

وهذه هي المؤاخاة الثانية، وكانت المؤاخاة الأولى في مكّة بين أصحابه من قريش ومواليهم العبيد المُعتَقين.

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٩، ص١٣٠.

وهذه المؤاخاة في المدينة أدّت إلى مزيدٍ من التلاحم بين المهاجرين والأنصار، وإلى تحقيق الانتصارات الكبرى في بدر والخندق وغيرهما برغم قلّة العدد وبساطة العتاد.

ثالثاً: وثيقة الصحيفة

بعد أن استقرّ الرسول ﷺ في المدينة، رأى من اللازم تنظيم الوضع الاجتماعيّ لأهلها؛ وذلك لأنّ تحقيق أهدافه على المدى البعيد يتطلّب استقرار الأوضاع فيها. ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنّ التركيبة السكانيّة فيها كانت غير متكافئة ولا متجانسة. فقد كان يقطن هذه المدينة يومذاك جماعات تنتمي كلّ جماعة منها إلى إحدى قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج.

وكان يعيش في داخل المدينة وحولها أقوام من اليهود، وفي الوضع الجديد أُضيف إليهم أيضاً المهاجرون القادمون من مكّة. وكان هذا الوضع يُنذر بالمخاطر.

وفي ضوء هذا الواقع ابتكر الرسول فكرة، فكتب ميثاقاً وُصف بأنّه "أوّل دستور" أو "أعظم عقد وسند تاريخي في الإسلام". وقد بيّن هذا العقد حقوق مختلف المكوِّنات السابقة في يثرب، وضَمِن لهم حياةً سليمة مع إقرار النظام والعدالة فيها، وهو بمثابة دستور عمل لتنظيم علاقات المسلمين فيما بينهم، وعلاقاتهم مع المتهوِّدين..

وقد تضمّنت الوثيقة قواعد في الحقوق والعلاقات أهمّها:

١. إنّ المسلمين أمّة واحدة من دون الناس، رغم اختلاف قبائلهم وانتماءاتهم.

٢. إنّ رسول الله ﷺ هو قائد الأمّة، وهو المرجع في حلّ المشكلات التي قد تحدُث بين المسلمين وبين غيرهم.

٣. قرّرت الوثيقة أنّ مركز السلطة في المدينة هو النبيّ ﷺ، فهو صاحب القرار في السماح أو المنع من تنقّل الأشخاص إلى خارج المدينة، فلا يُسمح لأحد من اليهود ـ أي المتهوِّدين ـ بالخروج إلّا بإذن رسول الله ﷺ.

٤. إنّ مسؤوليّة دفع الظلم تقع على عاتق الجميع، ولا تختصّ بمن وقع عليه الظلم.

٥. مَنَحَت الوثيقة المتهوِّدين من الأنصار حقوقهم العامّة، كحقّ الأمن والحريّة والمواطنة، بشرط أن

يلتزمـوا بقوانين الدولة، وأن لا يُفسدوا ولا يتآمروا على المسلمين والإسلام [1]. وكان لهذه الوثيقة أثرٌ في حفظ الاستقرار في المدينة، إذ لم تقع أيّة نزاعات بين أهل المدينة حتّى السنة الثانية للهجرة.

رابعاً: موادعة اليهود

اليهـود المقصودون في وثيقة الصحيفة الآنفة الذكـر هم: المتهوِّدون من قبائل الأنصار، وليس اليهود الذيـن هم من أصل إسرائيلـيّ بنو قينقاع، والنضير، وقريظة، فقد شعر هـؤلاء بأنّهم قد عُزلوا عن أنصارهم من المتهوِّدين بعد توقيع الصحيفة، فجاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وطلبوا الهدنة، فكتب لهم النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم بذلك أن لا يُعينوا عليه أحـداً، ولا يتعرّضوا لأحد من أصحابه بلسان ولا يد، ولا بسلاح، لا في السـرّ ولا في العلانيـة، فإن فعلـوا فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حلّ من سفـك دمائهم، وسبي ذراريهم ونسائهم وأخذ أموآلهم[2].

خامساً: إعداد القوّة العسكرية

فقد عمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على تقوية دعائم الدولة من خلال تدريب القوى البشريّة ودعمها بالسلاح والخيل، ونظَّم المدينة على أساس عسكريّ، وكوّن من شعبها مجتمع حرب، فقسّم المسلمين في المدينة إلى عرافـات، وجعـل علـى كلّ عشرة عريفاً، وجعـل من جميع الذكـور البالغين جنـوداً، وكوّن منهم الجيوش، والسرايا العسكريّة.

ويُمكن رسم الملامح العامّة للإدارة العسكريّة في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بما يلي:

أوّلاً: القـرار العسكـري: الـذي كان بيد النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم وحده، ولم يكن لأحدٍ مـن المسلمين سلطة اتخاذ قرار عسكريّ بشكلٍ منفرد بعيداً عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

ثانياً: تشكيل الجيش: حيث كان صلى الله عليه وآله وسلم يُشكِّل الجيش والوحدات العسكريّة من الذكور البالغين، ولم يكن يقبل في عداد الجيش غيرهم.

ثالثاً: التدريب: ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه أمر بالتدريب على الفروسيّة والرمي، وجعل التدريب العسكريّ من مقدّمات الثقافة العامّة للمجتمع الإسلاميّ.

---

(١) للإطلاع على مزيد من التفاصيل حول هذه الوثيقة وبنودها، راجع كتب السيرة، منها: السيرة النبويّة لابن هشام: ج٢،ص١٤٧ ـ١٥٠.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٩، ص١١٠.

خلاصة الدرس

- نظـراً للتنوُّع السـكّانيّ في المدينة، والصراعات القبلية، كتب النبيّ ﷺ أوّل دستور وأعظم عقد وسند تاريخيّ في الإسلام من أجل تنظيم علاقات المسلمين فيما بينهم، وعلاقاتهم مع المتهوِّدين، ولضمان استقرار الحياة السياسيّة والاجتماعيّة في المدينة.
- طلـب اليهـود من الرسول ﷺ توقيع هدنة معهم، فكتب لهم النبيّ ﷺ بذلك على أن لا يُعينوا عليه أحداً ولا يتعرّضوا بسوءٍ لأصحابه، وإلّا فهو في حلٍّ من أمره.
- عمـل النبيّ ﷺ علـى تقوية دعائم الدولة؛ من خلال الإعداد العسكـريّ وتدريب المسلمين على السلاح والرمي.



للمطالعة

خُلُقُ النبيّ ﷺ

كان أمـير المؤمنـين عليه السلام اذا وصـف رسول الله ﷺ قـال: «كان أجود الناس كفّـاً، وأرحب الناس صـدراً، وأصدق الناس لهجـة، وأوفاهم ذمّة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عِشرة، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه فعرفه أحبّه، لم أرَ مثله قبله ولا بعده»[٣].

وعن يونس عن الحسن قال: سألت عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خُلُقُه القرآن»[٤].

وقـال الديلمـيّ في الإرشاد: «كان ﷺ لا يمنعه الحياء أن يحمـل حاجته من السوق إلى أهله، ويُسلِّم علـى مـن استقبله من غنيّ وفقير وكبير وصغـير، ولا يُحقِّر ما دُعي إليه ولـو إلى حشف التَّمر، وكان خفيـف المؤنة، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بسّاماً من غير ضحك، ومحزوناً من غير عبوس، متواضعاً من غير مذلَّة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكلّ مسلم. ولم يتجشّأ من شبع قطّ، ولم يمدّ يده إلى طمع قطّ»[٥].

وقال العلماء في أخلاقه الفرديّة: «كان النبيّ ﷺ أسخى الناس، لا يثبت عنده دينار ولا درهم، فإن فَضُل ولم يجد من يُعطيه ويجنّه الليل لم يأوِ إلى منزله حتّى يتبرّأ منه إلى من يحتاج إليه.

---

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج١٦، ص١٩٠.

(٤) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج٦ ص٩١.

(٥) الديلمي، إرشاد القلوب، ج١، ص٢٢٦.

لا يأخذ ممّا آتاه الله إلا قوت طعامه فقط، مِنْ يسير ما يجد من التمر والشعير.

وكان يجلس على الأرض وينام عليها ويأكل عليها. وكان يخصف النَّعل، ويُرقِّع الثوب، ويفتح الباب، ويحلب الشَّاة، ويعقل البعير فيحلبها، ويطحن مع الخادم إذا أعيا (تعب).

وكان ﷺ أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضاً. وكان أصبر الناس على أوزار الناس"[1] .

وعن أبي أمامة قال: وكان رسول الله ﷺ: إذا جلس جلس القرفصاء.

وكان أكثر طعامه التَّمر والماء، ورُوي أنّه كان لا يأكل وحده ما يُمكنه.

وكان إذا أكل سمّى، ويأكل بثلاث أصابع وممّا يليه، ولا يتناول من بين يدي غيره، ويُؤتى بالطعام فيشرع قبل القوم ثمّ يشرعون، وذلك لكي لا يستحي أحد من تناول الطعام إذا هو كفَّ عنه.

وما ذمَّ رسول الله ﷺ طعاماً قطّ، وكان إذا أعجبه أكله وإذا كرهه تركه[2]. وكان إذا فرغ من طعامه لعق أصابعه التي أكل بها، وكان ﷺ يغسل يديه من الطعام حتّى ينقيهما فلا يوجد لما أكل ريح.

وكان ﷺ لا يلبس ثوبين، ويلبس الغليظ من القطن والكتان، إذا لبس جديداً أعطى خُلف ثيابه مسكيناً.

وكان يُجالس الفقراء ويُؤاكل المساكين ويُناولهم بيده، لا يرتفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس.

وكان يركب ما أمكنه من فرس أو بغلة أو حمار[3].

---

(١) الطباطبائي، سنن النبي ﷺ، ص١١٣، نقلاً عن الأحياء للغزالي.

(٢) م.ن، ص٢٢٢.

(٣) م.ن، ص ١٣٤.

١٢

الدرس الثاني عشر

المواجهات العسكريّة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ١

الدرس الثاني عشر

المواجهات العسكريّة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ١

أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب التحرّكات العسكريّة الأولى للمسلمين.

٢. أن يستظهر أسباب ونتائج معركة بدر وعوامل انتصار المسلمين فيها.

٣. أن يستنتج أسباب الإنكسار في معركة أحد.

٤. أن يُلاحظ أهميّة التزام أوامر القيادة وتوجيهاتها.

التحرّكات العسكريّة الأولى

انحصر دور النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في مكّة كقائدٍ إلهيّ بالدعوة وآلهداية وإرشاد الناس. وبعد استقراره في المدينة تولّى الزعامة السياسيّة للمسلمين أيضاً، واتّجه لإقامة مجتمع جديد مبنيّ على أساس تعاليم الإسلام، لذلك قام بعدّة خطوات في هذا الاتجاه، كما مرّ سابقاً.

وكانت تنزل على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم آيات القرآن في المدينة تتضمّن أحكاماً وتعاليم سياسيّة واجتماعيّة. ولّما صدر من الله تعالى الإذن بالجهاد والدفاع[1]، عزم على تشكيل قوّة دفاعيّة لتعزيز الإجراءات الاحترازيّة، ولحماية المسلمين من أيّ هجوم عسكريّ، وبادر إلى وضع النواة الأوّليّة للجيش الإسلاميّ، وقاد مجموعة من المعارك والغزوات والمناورات العسكريّة في السنة الثانية للهجرة.

اصطلاحات المعارك:

وللمؤرّخين اصطلاحان في المعارك التي خاضها المسلمون في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هما:

الغزوة: ويقصدون بها المعركة التي يحضرها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، ويتولّى هو قيادتها.

السَّريَّة: وهي المجموعة الجهاديّة التي لا يكون فيها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويتولّى أحد أصحابه قيادتها.

---

(١) قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ❖ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾ (سورة الحج: ٣٩ ـ ٤٠).

وأحصى المؤرّخون عدد الغزوات والسرايا في حياة النبيّ ﷺ، فبلغت أكثر من ثمانين غزوة وسَرِيَّة، وكلّها كانت في فترة ما بعد الهجرة.

بعض سرايا الرسول الأكرم ﷺ:

فقد قام ﷺ بالعديد من التحرُّكات العسكريّة [٢]، مثل سَرِيَّة حمزة بن عبد المطّلب التي تألّفت من ثلاثين مقاتلاً، والتي لاحقت قافلة لقريش أثناء عودتها إلى مكّة، لكن مجدي بن عمرو الجهنيّ الذي كان موادعاً للطرفين، حال بينهما، فانصرفا من غير قتال، ثمّ سَرِيَّة عبيدة بن الحارث التي تألّفت من ستين مُقاتِلاً حيث تبعت جماعة أبي سفيان، وسَرِيَّة سعد بن أبي وقاص التي تألّفت من عشرين مقاتلاً، لاحقت قافلة لقريش، وكذلك تتبّع الرسول ﷺ برفقة جماعة من المسلمين قافلة لقريش حتّى بلغ أرض الأبواء، ولكن لم يقع اشتباك بين الطرفين. وعقد النبيّ ﷺ في سفره هذا معاهدة مع قبيلة بني ضمرة بأنْ تقف على الحياد. وخرج أيضاً ﷺ على رأس مائة وخمسين من أصحابه لاعتراض قافلة تجاريّة لقريش يقودها أبو سفيان مُتوجِّهاً من مكّة إلى الشام غزوة ذات العشيرة ولكنّه لم يلحق بالقافلة، وأبرم أثناء ذلك معاهدة مع قبيلة بني مدلج[٣].

بعض معارك الرسول ﷺ:

<u>معركة بدر</u>

كانت "معركة بدر" أوّل معركة مُسلَّحة كبرى خاضها النبيّ ﷺ والمسلمون في مواجهة المشركين من قريش، وذلك يوم الجمعة في السابع عشر من شهر رمضان المبارك في السنة الثانية من الهجرة، قُرْبَ بدر على بُعد حوالي مائة وستين كيلو متراً من المدينة فيما بينها وبين مكّة المكرّمة.

<u>حيثيّات المعركة:</u>

خرج رسول الله ﷺ ومعه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أصحابه مستهدفين السيطرة على القافلة التجاريّة التي كان يقودها أبو سفيان، المُتوجِّهة من الشام إلى مكّة، لا طمعاً في المال والغنيمة وإنّما بُغية التعويض على المسلمين ممّا أخذه منهم المشركون، وفرض حصار اقتصاديّ على قريش، علَّ ذلك يدفعها إلى الامتناع عن محاربة الدعوة، والتآمر على الإسلام والمسلمين.

---

(٢) هذه التحرّكات لا تُعتبر حرباً كاملة، ولم يحصل في أيٍّ منها معركة أو اشتباك بين الطرفين.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ج٢، ص٢٥٩ ـ ١٦١.

لقد كان قرار التصدّي للقافلة ينطوي على احتمال تطوُّر الموقف، وحصول مواجهة عسكريّة، ونشوب معركة حاسمة ومصيريّة، وهو ما حصل فعلاً.

فقد علم أبو سفيان بتحرُّك النبيّ ﷺ فغيّر طريقه، وأرسل إلى مكّة يطلب النجدة من قريش، فأقبلت قريش بأحقادها وكبريائها بألف مقاتل لحماية القافلة، وحين علمت قريش بنجاة القافلة حاول بعض قادتها أن يكتفي بذلك ويدعو إلى الانسحاب والعودة إلى مكّة، إلّا أنّ أبا جهل وغيره أصرّوا على العدوان، فقرّروا الهجوم على المسلمين، والتقى الجمعان في بدر، وبدأت المعركة بالمبارزة ثمّ التحم الجيشان وهما غير مُتكافئين لا من حيث العدد ولا من حيث العتاد، ولكنّ الله أنزل الكثير من ألطافه ورحمته، فتدخّلت يد الغيب، وجاء الإمداد الملائكيّ للنبيّ ﷺ، فحقّق الله سبحانه النصر للإسلام والمسلمين، واندحرت قوّة قريش، وتشتّت جيشها بين قتيل وجريح وأسير؛ حيث أسفرت المعركة عن قتل سبعين من المشركين وأسر سبعين، ولم يسقط من المسلمين سوى تسعة شهداء وقيل: أحد عشر، وقيل: أربعة عشر شهيداً، ولم يُؤسر منهم أحد.

وقد برز للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في هذه المعركة دور كبير، وظهرت شجاعته المُتميِّزة بين صفوف المسلمين، حيث رُوي أنّه قُتل بيده ثُلث قتلى المشركين، وقيل: قتل نصفهم بيده وشارك الآخرين في قتل النصف الآخر.

لقد حقّق المسلمون في بدر مكاسب ماديّة وأمنيّة وعقيديّة وإعلاميّة، ساهمت في خدمة الدعوة وتثبيت أركانها، وتحقيق نقلة نوعيّة في مجمل الأحداث في الجزيرة العربيّة.

ولعلّ أبرز نتائج هذه المعركة أنّها:

أوّلاً: عزّزت ثقة المسلمين بأنفسهم، وثبّتت إيمان بعض المتردّدين في إسلامهم.

ثانياً: جعلت من المسلمين قوّة مرهوبة الجانب عند القبائل المشركة واليهود في المنطقة.

ثالثاً: شجّعت الكثيرين على الدخول في الإسلام بعد أن كانت قريش تُشكِّل الحاجز النفسيّ والماديّ لهم.

رابعاً: أضعفت هيبة قريش ونفوذها ومكانتها بين العرب.

خامساً: فتحت الأبواب أمام رسول الله ﷺ للانطلاق بحريّة أكبر في نشر الدعوة.

سادساً: زادت من قوّة التضامن والتماسك بين المهاجرين والأنصار، وعزّزت وحدة الفريقين في مواجهة التحدّي.

وأثبتت تجربة بدر:

أوّلاً: أنّ القِلّـة المؤمنة المجاهـدة الصابرة التي تملك إرادة قويّة وعزيمة راسخة، وإخلاصاً، ووعياً، وتخطيطـاً، تستطيع أن تُحقّق الانتصـارات والإنجازات الكبرى بإذن الله حتّـى ولو كان العدوّ يملك الكثرة والقوّة الماديّة الكبيرة.

يقول الله تعالى: **﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾**[1].

ويقول سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ❁الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**[2].

وثانيـاً: إنّ النصـر بحاجـة إلى عنصر روحيّ معنويّ هـو الإيمان بالله، والإخلاص له، والاعتماد عليه، والثقة به، وغير ذلك ممّا يُوفّر للإنسان قوّة روحيّة ومعنويّة، تُبعده عن الشعور بالقلق والخوف والضياع أمام مواقف التحدّي.

وقد كان هذا العنصر حاضراً بقوّة في بدر ومجاهديها، وقد ساهم بصورة أساس في تحقيق الانتصار في هذه المعركة، وفي كلّ المعارك التي خاضها المسلمون في مواجهة أعدائهم.

خلاصة الدرس

- تختلـف المرحلة المكّية من حياة النبـيّ ﷺ عن المرحلة المدنيّة، حيث اتجه في المدينة إلى تعزيز القـدرات الدفاعيّة للدولة الإسلاميّة، ووضع النـواة الأولى للجيش الإسلاميّ، وقاد مجموعة من المعارك وأرسل العديد من السرايا العسكريّة.
- كانـت أهـم سرايا وغزوات النبـيّ ﷺ بدر الكبرى لأنّهـا حطّمت معنويّـات قريش ورفعت من معنويّات المسلمين، ورسّخت عقائدهم، وأدخلت الرعب في نفوس المشركين، وفتحت الأبواب أمام النبيّ ﷺ في الانطلاق بحريّة أكبر في نشر الدعوة.

---

(١) آل عمران: ١٢٣.

(٢) الأنفال: ٦٥ ـ ٦٦.

١٣

الدرس الثالث عشر

المواجهات العسكريّة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ٢

الدرس الثالث عشر

المواجهات العسكريّة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ٢

أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب التحرّكات العسكريّة الأولى للمسلمين.

٢. أن يستظهر أسباب ونتائج معركة بدر وعوامل انتصار المسلمين فيها.

٣. أن يستنتج أسباب الإنكسار في معركة أحد.

٤. أن يُلاحظ أهميّة التزام أوامر القيادة وتوجيهاتها.

عوامل انتصار المسلمين في بدر:

كانت هزيمة قريش وانتصار المسلمين في بدر مفاجأة غير مُتوقَّعة، وصلت أصداؤها إلى الحبشة. ويُمكن تلخيص أسباب وعوامل هذا الانتصار الباهر للمسلمين بما يلي:

١. القيادة الصالحة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وشجاعته وإقدامه، وفي ذلك يقول الإمام عليّ عليه السلام: «كُنّا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدوّ منه»[1].

٢. شجاعة عليّ عليه السلام وتضحيته الفذّة، فهو وحده قتل نصف عدد من قُتلوا من المشركين[2].

٣. العقيدة الراسخة والمعنويّات العالية، حيث كان المسلمون على درجة عالية من الإيمان وقوّة الروح المعنويّة، وقاتلوا بكلّ بسالة وأظهروا من الشجاعة ما أثار دهشة المشركين.

٤. الإمداد الغيبيّ، الذي حصل على عدّة وجوه، مثل نزول الملائكة على المسلمين بالنصر وحضورهم في ساحة المعركة، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين[3].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٣، ص٢٧٩.

(٢) م.ن، المقدّمة ص٢٤.

(٣) راجع: سورة الأنفال، الآيتان: ٩ و١٧.

معركة أُحد

استمـرّت أحداث بـدر ومعركتها التاريخيّة تتفاعل حقداً وكيداً في نفوس المشركين في مكّة. ولم يكن لـدى أبي سفيان، قائد الشرك والعدوان آنذاك، غير التفكير بالحرب ومعاودة الهجوم على المسلمين بدافع الثأر، وتحقيق نصر عسكريّ يُغيِّر الآثار النفسيّة والإعلاميّة التي أنتجتها معركة بدر.

فـدقّ المشركون طبول الحرب، وخطّطوا للعدوان وآلهجوم علـى المدينة، واتفقوا على أن تُرصد أرباح القافلة التجاريّة التي أفلتت من قبضة المسلمين وقادت إلى معركة بدر، لإسناد هذه الحملة العسكريّة الآثمة.

زحف المشركون باتجاه المدينة، وكان عددهم ثلاثة آلاف مقاتل معهم العتاد والسلاح الكثير، وأخرجوا النساء معهم ليُشجعنّ الجنود على القتال، فعرف النبيّ ﷺ بمسيرهم من خلال عيونه في مكّة. ويُقـال: إنّ العبّاسـ بن عبد المطّلب أرسـل إليه من مكّة بذلك، فأعلن النبـيّ ﷺ التعبئة العامّة في صفـوف المسلمين استعداداً للدفاع، وبثّ العيـون ورجال الاستطلاع في المنطقة لجمع المعلومات. وبعد أن استشـار أصحابه في سُبُل التصدّي، قرّر مواجهة العدوّ خارج المدينة، فخرج ﷺ في حوالي ألف مقاتـل، غير أنّ المنافقين بقيادة عبد الله بن أُبيّ بن سلول، انسحبوا قبل الوصول إلى ساحة المعركة، وكانـوا ثلاثمائـة، بحجّة أنّ النبـيّ ﷺ خالف رأيهم الداعي إلى قتـال المشركين من داخل المدينة، فواصـل رسـول الله ﷺ مسيرة الجهاد بسبعمائة مقاتل، والتقـى الفريقان عند جبل أُحد على بُعد بضعة كيلومترات من المدينة، في شهر شوّال من السنة الثالثة من الهجرة.

خارطة المعركة

رسـم رسول الله ﷺ خارطة المعركة، وحدّد مواقع جيشه، فوضع الرماة عند تلّة مشرفة في الجبل، وكان عددهم خمسين رجلاً، ليسُدَّ بهم ثغرة يُمكن للعدوّ أن يتسلّل منها، وليُوفّر حماية خلفيّة للجيش الإسلاميّ، وأمرهم بعدم ترك مواقعهم مهما حدث، فقال لهم فيما يُروى عنه ﷺ: «احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تُشركونا» [٤]

(٤) ابن كثير، السيرة النبويّة، ج٣، ص٤٧.

الرماة ومخالفة أمر الرسول ﷺ

وبدأت المعركة، وكان النصر حليف المسلمين في الجولة الأولى، فاستولت قوّاتهم على ساحة المعركة، وانهزم العدوّ، وبدؤوا بجمع الغنائم، فاستهوت الغنائم نفوس بعض الرماة، فتركوا مواقعهم، واندفعوا نحو الغنائم، مخالفين بذلك أوامر قائدهم الذي رفض مع قلّةٍ منهم أن يترك موقعه امتثالاً لتكليف رسول الله ﷺ، ممّا أحدث ثغرة في صفوف المجاهدين، فاستغلّها خالد بن الوليد أحد قادة المشركين آنذاك، فهاجم المجاهدين من خلفهم، فتسبّب هذا الهجوم ببعثرة الجيش الإسلاميّ وانهزامه أمام المشركين الذين استعادوا أنفاسهم بعدما تمكّن خالد بن الوليد من قتل القلّة التي بقيت على الجبل والالتفاف على المسلمين المُنشغلين بجمع الغنائم، وصرخ صارخ أنّ محمّداً قد قُتل فَتَشَتَّت المسلمون تحت وقع المُباغتة، وتفرّقوا عن رسول الله ﷺ ولم يثبُت معه غير الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، الذي راح يُقاتل إلى جانب رسول الله ﷺ قتالاً شديداً ويصدّ كتائب المشركين ويُفرّقهم ويقتل فيهم، عندها نادى جبرائيل عليه السلام من السماء: "لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ"[1].

ولمّا رأى المسلمون الفارُّون صبرَ وثباتَ رسول الله ﷺ والإمام عليّ عليه السلام وقوّة جهادهما في سبيل الله وعرفوا أنّ النبيّ ﷺ لم يَمُت، وهو يدعوهم إليه، بدؤوا يعودون تدريجيّاً إلى ميدان المعركة حتّى اجتمعوا حوله ﷺ، فطلب منهم أن يرجعوا إلى مراكزهم الأولى في القتال، تماماً كما هي الخطّة الأولى، فقاتلوا من جديد قتالاً شديداً، وتمكّنوا من صدّ هجمات المشركين المتواصلة، وأدرك المشركون استحالة إبادة المسلمين وتفتيتهم وتحقيق انتصار عليهم، وكانوا قد أصابهم التعب والجراح، فآثروا الانسحاب عائدين إلى مكّة دون تحقيق أهدافهم.

آثار المعركة

ومع ذلك فإنّ ما أصاب المسلمين في هذه المعركة كان خسارة فادحة، فقد سقط فيها حوالي سبعين شهيداً وفي مقدّمهم حمزة بن عبد المطّلب ومصعب بن عمير رضوان الله عليهما، وعدد كبير من الجرحى حتّى أنّ النبيّ ﷺ أُصيب ببعض الجراح في وجهه، حسب رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، وبلغت جراحات الإمام عليّ عليه السلام نيّفاً وستّين جراحة، وقيل أكثر من ذلك، بين طعنة، ورمية،

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج٨، ص١١٠.

وضربة؛ أثناء دفاعه عن رسول الله ﷺ وصدّه كتائب الأعداء.

لقد أُصيب المسلمون بفعل النكسة في "أُحد" بصدمة عنيفة وحزن عميق، وشعروا بالضعف والاحباط حتّى كاد اليأس يتسرّب إلى بعضٍ منهم، والشكّ إلى بعضٍ آخر.

أسباب الهزيمة ودروسها:

إنّ الأسباب التي أدّت إلى فشل المسلمين في أحد فصول معركة "أُحد" وما يُمكن أن نستفيده من هذه التجربة كثيرة، منها:

١. أهميّة الانضباط والتقيُّد بأوامر القائد وتوجيهاته مهما كانت الظروف.
٢. أنّ النصر لا يرتبط بكثرة العدد، ولذلك لا ينبغي الاغترار بالكثرة، بل يجب الاعتماد على النفس والتوكّل على الله والطاعة للقيادة وتحمُّل المسؤوليّة والقيام بالتكاليف.
٣. إنّ عناية الله بالمؤمنين وتسديده لهم لا يعني إلغاء جميع الأسباب الطبيعيّة كليّةً، وهذه العناية والإمداد الإلهيّ مشروطان بالسعي نحو الهدف الأسمى.
٤. إنّ الارتباط بالله تعالى والإعراض عن الدنيا ومتاعها عاملان أساسان في تأييد الله تعالى للمسلمين.

وأدّت نتائج معركة أُحد إلى شماتة اليهود وكشف أحقادهم، ومحاولة إثارة الفتن من المنافقين، وإلى زعزعة الثقة بالقدرة العسكريّة للمسلمين، وشجّعت أعداء الإسلام في أطراف المدينة على الوقوف ضدّ المسلمين والتآمر عليهم.

خلاصة الدرس

- كانت أهم سرايا وغزوات النبيّ ﷺ بدر الكبرى لأنّها حطّمت معنويّات قريش ورفعت من معنويّات المسلمين، ورسّخت عقائدهم، وأدخلت الرعب في نفوس المشركين، وفتحت الأبواب أمام النبيّ ﷺ في الانطلاق بحريّة أكبر في نشر الدعوة.
- في معركة أُحد كان النصر حليف المسلمين في الجولة الأولى، ولكنّهم نتيجة لعدم التزامهم بأوامر النبيّ ﷺ وتوجيهاته خسروا المعركة، وكانت هزيمة أُحد درساً قاسياً وصعباً للمسلمين.

للمطالعة

مظهر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

كان رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم شديـد الاهتمـام بالطهارة والنظافة، فلـم يكن يُماثله أحـدٌ في نظافة جسمه وملابسه وطيب رائحته.

فقد كان يغتسل في أغلب الأيّام مُعتبراً ذلك جزءاً من العبادات، وكان يُداوم على الوضوء ليبقى على طهارة، حتّى ورد عن بعض أصحابه: ما رأيت أوضأ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان يغسل شعر رأسه الذي كان يصل إلى شحمة أُذنه بماء السدر، ويُمشّطه، ويدهنه بزيت البنفسج، ويُعطّر جسده وملابسه بالمسك، وكان يُعرف في الليلة الظلماء قبل أن يُرى بالطّيب، فيُقال: هذا النبيّ.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «كان صلى الله عليه وآله وسلم لا يمرّ في طريق فيمرّ فيه أحدٌ بعد يومين أو ثلاثة إلّا عرف أنّه قد مرَّ فيه لطيب عُرفه»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «كان رسول الله يُنفق على الطّيب أكثر مما يُنفق على الطعام»[2].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُنظِّف أسنانه بالسواك عدّة مرّات في اليوم، ولا سيّما ليلاً قبل النوم وعند الاستيقاظ.

كان يغسل يديه وفمه قبل تناول الطعام وبعده، متجنِّباً أكل الخضراوات الكريهة الرائحة.

وكان شديد العناية بمظهره وهندامه، فقد روي أنّه كان يتجمّل لأصحابه فضلاً عن تجمّله لأهله.

وكان يُوصي أصحابه وأتباعه أن يلتزموا نظافة أبدانهم وملابسهم، وأن يعتنوا بمظهرهم الخارجيّ.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «احتبس الوحي على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقيل: احتبس عنك الوحي يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: وكيف لا يحتبس عنّي الوحي، وأنتم لا تُقلِّمون أظفاركم»[3].

وذات يـوم رأته إحـدى زوجاته وهو ينظر في ركوة فيها ماء في حجرتها، ويُسوّي فيها جمّته إذ لم يكن لديـه مرآة ينظر فيها، وهو خـارجٌ إلى أصحابه، فقالت: بأبي وأُمّي، تتمـرّأ في الرَّكوة وتُسوّي جمّتك وأنت النبيّ وخير خلقه؟!

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله يُحبّ من عبده اذا خرج إلى إخوانه أن يتهيّأ لهم ويتجمّل»[4].

---

(١) الكليني، الكافي، ج١ ص ٤٤٢.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢٤٨.

(٣) الحميري القمي، قرب الإسناد، ص ٢٤.

(٤) ١٤-الطباطبائي، سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ص١١٨.

١٤

الدرس الرابع عشر

المواجهات العسكريّة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ٣

الدرس الرابع عشر

المواجهات العسكريّة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ٣

أهداف الدرس:

١. أن يوجز الطالب معركة الخندق.

٢. أن يُعدِّد عوامل النصر في معركة الخندق.

٣. أن يُعدِّد آثار معركة الخندق.

٤. أن يسرد أسباب صلح الحديبيّة.

٥. أن يُعدِّد أهمّ بنود صلح الحديبيّة.

٦. أن يُعدِّد نتائج صلح الحديبيّة.

معركة الخندق الأحزاب[1]

توالت غزوات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لبعض قبائل العرب واليهود بعد معركة بدر وأُحد، ممّا أثار مخاوف اليهود وإحساسهم بالخطر من تعاظم قوّة المسلمين، فاندفعوا للتآمر على الإسلام ونبيّه العظيم صلى الله عليه وآله وسلم، وراحوا يُحرِّضون أعداء الإسلام، ويُخطِّطون لتكوين تجمُّع عسكريّ هائل لمُهاجمة المدينة والقضاء على الإسلام.

لقد اتصل اليهود بقريش وغطفان، واتفقوا معهم على مهاجمة المدينة، إلَّا أنّ أنباء هذه المؤامرة تسرَّبت إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فشاور أصحابه، واستقرّ الرأي على حفر خندق حول المدينة لتحصينها، فاستنفر المسلمون لحفر الخندق وشارك هو صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه في عمليّة الحفر.

تأهّبت أحزاب الكفر والضلال، من قريش وغطفان وبعض القبائل المعادية، وجمعوا رجالهم وأنصارهم ومن تابعهم، فكان تِعداد جيشهم عشرة آلاف مقاتل نزلوا قرب المدينة، بينما كان عدد

(١) وقعت هذه المعركة في شوّال من السنة الخامسة للهجرة.

المسلمين. كما في رواية الإمام الصادق عليه السلام[2] . تسعمائة مقاتل تعبّؤوا خلف الخندق بقوّة وشجاعة، وشـاء الله سبحانـه وتعالى أن ينصر دينـه، ويوفّر لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم عوامل النصـر، فيهزم أحزاب الكفر والضلال من دون قتال عنيف بين الطرفين[3].

عوامل النصر في معركة الخندق الأحزاب:

ساهمت أربعة عناصر أساس في تحقيق النصر في هذه المعركة، هي:

١. التخطيـط العسكريّ الذي تمثَّل بحفر الخنـدق، حيث ساهم الخندق في حماية المسلمين والمدينة، وفي حرمـان العدوّ من سرعة الحركة، وفي تطويل أمـد المعركة وجعلها على شكل محاور، لكي تتفاقم أزمات الأحزاب نتيجة لطول زمن الحرب.

٢. العمـل الاستخبـاريّ الفعَّال الذي قام به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حيـث أدّى إلى إيقاع الخلاف بين قوى الأحزاب.

٣. الـدور البطـوليّ الذي قام به عليّ بن أبـي طالب عليه السلام، حيث مكَّنه الله من قتل عمرو بن عبد ودّ، وهو من أبرز صناديد قريش ورجالاتها، فانهارت قوّة قريش، ويئسوا وشعروا بالضعف والهزيمة.

وقـد وصف النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم موقف عليّ عليه السلام يوم الخندق بقوله: «لَمبارزة علـيّ بن أبي طالب لِعمرو بن عبد ودّ يوم الخندق، أفضل من أعمال أمّتي إلى يوم القيامة»[4].

٤. التأييد الإلهيّ الذي تمثَّل بجنود الله الغيبيّين، الذين نزلوا ساحة المعركة، والذي تمثَّل أيضاً بالرياح والعواصف الهوجاء، التي أصابت معسكر الأعداء فزلزلت استقرارهم، وفرضت عليهم الفرار أذلَّاء من دون تحقيق شيء.

نتائج المعركة:

فرزت حرب الخندق المسلمين إلى ثلاث فئات:

١. ضعـاف الإيمان: وهـم الذين وقعوا تحت تأثير الوساوس الشيطانيّـة والظنون السيّئة، فعاشوا

---

(٢) الكافي: ج٥، ص٤٦، والوسائل: ج١١، ص١٠٥.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص١٩٧.

(٤) الحاكـم النيسابـوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: عبد الرحمن المرعشـي، بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٤٠٦هـ، ج٣، ص٣٢.

الخـوف والقلـق عندمـا رأوا الأعداء قد تحالفـوا ضدهم، فاهتـزّ إيمانهم وفقدوا عمـق الثقة بالله وبنصره.

وقـد صـوَّر القرآن الكريم موقف هذه الفئة بقوله تعـالى: ﴿**إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ❖ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا**﴾[1].

٢. المنافقون: وقد اتخذوا عدّة مواقف ذكرها القرآن الكريم، هي:

أ. قالـوا مـا وعدنـا الله ورسوله إلَّا غرورا، لأنّ الله ورسوله كانا قـد وعداهم النصر والفتح، وها هم أمام حشود القوى المُتحالِفة لا يقوون على شيء، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا**﴾[2].

ب. تثبيـط العزائـم وشلّ الإرادات عن الجهاد، قـال تعالى حكاية عن المنافقـين: ﴿**وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا**﴾[3]، أي لا تقدرون علـى فعل شيء أمام قدرات الأعداء، فارجعوا من حيث أتيتم.

ج. خلق الأعذار الواهية من أجل الفرار من ساحة الجهاد، قال تعالى: ﴿**وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا**﴾[4].

٣. المؤمنـون الحقيقيّـون: وهـم الذين. لمّـا رأوا الأحـزاب. لم ينحرفوا قيد أنملـة عن عقيدتهم وإيمانهـم، ولم يضعفـوا، ولم يُشكّكـوا، ولم يتزلزلوا وإنّما عبَّروا عن ثقتهـم بوعد الله ورسوله، وعن صدقهـم وإخلاصهـم وعمق إيمانهـم وثباتهم في مواقع التحـدّي، قال تعـالى: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾[5]

---

(١) الأحزاب: ١٠ ـ ١١.

(٢) الأحزاب: ١٢.

(٣) الأحزاب: ١٣.

(٤) الأحزاب: ١٣.

(٥) الأحزاب: ٢٢.

خلاصة الدرس

- ساهمت أربعة عناصر في تحقيق النصر في معركة الخندق:
  1. التخطيط العسكريّ الذي تمثَّل بحفر الخندق،
  2. العمل الاستخباريّ الفعّال،
  3. الدور البطوليّ للإمام عليَّ عليه السلام،
  4. التأييد الإلهيّ الغيبيّ.

- وفرزت حرب الخندق المسلمين إلى ثلاث فئات:
  1. ضعاف الإيمان.
  2. المنافقين.
  3. والمؤمنين الحقيقيّين.

١٥

الدرس الخامس عشر

المواجهات العسكريّة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ٤

الدرس الخامس عشر

المواجهات العسكريّة للنبيّ ﷺ ٤

صلح الحديبية

عزّزت الأحداث والمعارك التي وقعت بين رسول الله ﷺ وأعداء الإسلام من المشركين واليهود موقف المسلمين، وغرست هيبتهم في النفوس، فقرّر الرسول ﷺ أن يسير بأصحابه إلى مكّة ليزور البيت الحرام ويعتمر، بعد أن رأى في المنام أنّه يدخله هو وأصحابه آمنين من غير قتال، كما يُشير قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾[1].

توجّه الرسول ﷺ ومعه ما يقرب من ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار نحو مكّة، في ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة، وهم يحملون السلاح، وقد ساقوا معهم سبعين بُدنة هدياً لتُنحَر في مكّة.

تناهى الخبر إلى قريش ففزعت، وظنّت أنّ محمّداً ﷺ يُريد الهجوم عليها، فراحت تتدارس الموقف وتُجهِّز نفسها لصدّ المسلمين، وأرسلت سَرِيَّة بقيادة خالد بن الوليد كمقدِّمة لجيشها، فبلغ النبيّ ﷺ خبر قريش واستعدادها لقتاله، ولكي يتجنّب المواجهة - حيث لم يكن هدفه الحرب - غيَّر مسيره وسلك طريقاً غير الطريق الذي سلكته قريش، حتّى استقرَّ في وادي الحُديبية[2]، فشكا أصحابه جفاف الوادي وانعدام الماء فيه، فأجرى الله سبحانه معجزة خالدة على يده المباركة، تجلَّت عندما توضّأ ﷺ وألقى ماء المضمضة في البئر التي كان قد نضب ماؤها، فانفجر الماء وارتوى الجمع.

بعدما حطَّ جيش المسلمين في الحُديبية، بدأت رحلة التفاوض بين النبيّ ﷺ وقريش، فبعثت قريش عِدّة مندوبين على التوالي للتفاوض مع الرسول ﷺ واستيضاح أهدافه، فأبلغهم النبيّ ﷺ

---

(١) الفتح: ٢٧.

(٢) وادي الحديبيّة: مكان يبعد عن مكّة حوالي عشرين كيلو متراً.

بجـواب واحد: "إنّا لم نجئ لقتـال ولكنّا جئنا معتمرين". ولكنّ قريشاً لم تقتنع بذلك واتهمت بعض مبعوثيها بالجُبْن والكذب، فقرّر النبيّ ﷺ أن يبعث من جهته سفيراً إلى قريش، ليُوضِّح لها الهدف الـذي جـاء المسلمون من أجلـه، فاختار خراش بن أميّة من خزاعة لأداء المهمّـة، إلّا أنّ خراشاً ما إن بلـغ مكّـة حتّى عقروا بعيره، وأرادوا الفتك به لولا أن منعته الأحابيش، فرجع إلى معسكر النبيّ ﷺ وأخبره بما جرى معه.

لم ييأس رسول الله ﷺ رغم التصلُّب الذي أبدته قيادة قريش ضدّ محاولاته ﷺ السلميّة، وكأنّه كان يـرى بنظره الثاقب النتائـج الطيّبة التي ستجنيهـا الدعوة الإسلاميّة، إذا مـا سادت العلاقات السلميّـة فترة من الوقت مع قريش، فأرسل عثمان بن عفان إلى مكّة فاعتقلته قريش ثلاثة أيّام حتّى ظنّ المسلمون أنّه قُتل.

لم يجـد الرسـول ﷺ بُدّاً من التهيّؤ للقتال، بعد فشل كلّ محاولاته الودِّيّة لدخول مكّة، وبعد الموقف السيّـىء الذي وقفتـه قريش من سفرائه إليها، فدعـا الناس إلى البيعة علـى الصمود بوجه قريش، فانهـال عليـه المسلمون يُبايعونه، وهو واقف تحت شجرة سُمّيت فيما بعـد شجرة الرضوان نسبةً إلى البيعة التي تمّت تحتها.

<u>بنود الصلح:</u>

تَخوَّفـت قريش من استعـداد المسلمين للقتال ومبايعتهم الرسول ﷺ علـى الصمود، بعدما بلغتهم أنبـاء بيعة الرضوان، فقرّرت استئناف المفاوضات، وأرسلت سهيل بن عمرو سفيراً إلى النبيّ ﷺ، وكلّفتـه أن يسعـى لمصالحـة محمّد ﷺ شرط أن يرجع عنهـم هذا العام، فالتقـى سهيل بالرسول ﷺ، وجـرت مفاوضات طويلة انتهت أخـيراً بالاتفاق على إبرام معاهدة هدنة بين الطرفين، وتمّت الموافقـة علـى جميع بنودها، ودعـا الرسول ﷺ الإمام عليّـاً عليه السلام فكتب الوثيقـة، وكان من أبرز بنودها:

١. اتفق الطرفان على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض.

٢. مـن أتـى محمّداً ﷺ من قريش بغير إذن وليّه رَدّهُ عليهـم، ومن جاء قريشاً ممّن مع محمّد لم يردّوه عليه.

٣. مـن أحـبّ أن يدخل في عقـد محمّد ﷺ وعهده –أي يتحالف معه– كان لـه ذلك، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم كان له ذلك أيضاً، من غير حرج عليه من أحد الطرفين.

٤. أن يرجـع النبيّ ﷺ بمن معه هذا العام، علـى أن يأتي في العام القادم فيدخل مكّة ويُقيم فيها ثلاثة أيّام، ولا يدخل عليها بسلاح إلَّا سلاح المسافر، والسيوف في القُرَب.

٥. أن لا يكون الإسلام ظاهراً بمكّة، ولا يُكره أحد على دينه، ولا يُؤذى ولا يُعيَّر.

٦. لا إسـلال سرقـة ولا إغلال خيانة، بـل يَحترِم كلّ الأطراف أموال الطـرف الآخر، فلا يخونه ولا يعتدي عليه بسرقة.

٧. أن لا تُعين قريش على محمّد ﷺ وأصحابه بنفسٍ ولا سلاح.

وبموجب هذه المعاهدة البند٣ تحالفت خزاعة مع النبيّ ﷺ، وتحالفت كنانة مع قريش.

نتائج صلح الحديبية

كان المسلمـون لا يُدركون الآثـار والمعطيات الإيجابيّة والبنّاءة، التي ستحصل من وراء هذا الصلح في المستقبل، فأظهر بعضٌ منهم مواقف متعنِّتة لكي يصرفوا رسول الله ﷺ عن إمضائه؛ ولكنّ الأمور سـارت مثلمـا كان يتوقّع رسول الله ﷺ، ونتجت عن هذا الصلح مُعطَيات وآثار سياسيّة واجتماعيّة متعدِّدة، نُورد قسماً منها في ما يلي:

١. الاعتراف الرسميّ بالمسلمين من قِبَل المشركين، وذلك من خلال توقيعهم لمعاهدة مُشتركة معهم، في الوقت الذي كان فيه المشركون لا يُقيمون وزناً للمسلمين.

٢. إتاحـة الفرصة أمام النبيّ ﷺ لنشـر الإسلام على نطاقٍ واسع بعدمـا كان مشغولاً بالتصدّي لمؤامـرات قريشـ، فبعد تجميد الصّـراع والاتفاق علـى الصلح، عاشـت المنطقة هـدوءاً نسبيّاً قـام خلالـه النبيّ ﷺ بأوسع نشـاط تبليغي، ووجّه سفـراءه إلى كبار أمـراء العرب المشركين وزعمائهـم، يدعوهم إلى الإسلام، وكذلك وجّه مبعوثيه إلى أباطرة العالم وملوكه يعرض عليهم الدعوة إلى الإسلام.

٣. أزال صلح الحديبية الموانع الماديّة والنفسيّة، التي كانت وضعتها قريش بين الناس وبين الإسلام، وسُمـح لمختلف القبائل المُشركة المنتشرة في الجزيرة بالإتّصـال بالمسلمين، والتعرُّف إلى مبادئ

الإســلام ومفاهيمه وأحكامه، فدخل كثير مــن النـاس في الإسلام، بل لقد دخل فيه خلال سنتين أكثر ممّا دخل فيه على امتداد السنوات الماضية، بدليل أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، بينما خرج في فتح مكّة بعد سنتين على رأس عشرة آلاف مقاتل[1].

٤. أتــاح الصلح فرصة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليخوض بهدوء صراعاً ضدّ القوى الأخـرى المضادّة للإسلام، كاليهود والبيزنطيّين وحلفائهم العرب.

٥. أدّى الصلــح - نوعاً مــا - إلى فتح مكّة؛ لأنّه بموجب المادّة الرابعة منه تُركت للقبائل الأخرى حرّيّة التحالف والانضمام إلى قريش أو إلى المسلمين، فتحالفت قبيلة خزاعة مع المسلمين. وقد نقضت قريش هذا الصلح عندما هاجمت خزاعة، ونتيجة لذلك أقدم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على فتح مكّة.

فضلاً عن الكثير من الأمور التي أعرضنا عن ذكرها اختصاراً، ويكفينا في ذلك وصف الله عزَّ وجلَّ هذا الصلح بـ"الفتح المبين".

خلاصة الدرس

- كان لصلــح الحديبيّــة بركات عديدة، حيث مهّد لدخول كثير من الناس إلى الإسلام، ومهّد لفتح مكّة وانتصار الإسلام على الكفر القرشيّ.

(١) إعلام الورى، الطبرسيّ، ص: ٩٨، وبحار الأنوار، ج ٢٠، ص٣٦٣.

للمطالعة

زهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

إذا أردنـا أن نُكـوِّن فكرة واضحة عن زهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، علينـا أن نعرف طعامه ولباسه ومسكنه ومُدّخراته.

أمّـا طعامـه صلى الله عليه وآله وسلم: فقد كان خبز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبز الشعير في أكـثر أحيانه، وما أكل خبز طحين منخول حتّى قُبِض، بل ما شبع من خبز الشعير قطّ.

فعـن العيص بن قاسم قال: قلت للصادق جعفر بـن محمّد عليه السلام: حديث يُروى عن أبيك عليه السلام أنّه قـال: «مـا شبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خبز برّ قـطّ، أهو صحيح؟ فقال: لا، ما أكل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خبز برّ قطّ، ولا شبع من خبز شعير قطّ»[1].

وعنـه عليه السلام، عن عليّ بـن أبي طالب عليه السلام قال: «دخلت السوق فابتعت لحمـاً بدرهم وذُرَة بدرهم، وأتيت فاطمة حتّى إذا فرغت من الخبز والطبخ قالت: لو دعوت أبي! فأتيته وهو مضطجع وهو يقول: أعوذ بالله من الجوع ضجيعاً[2]، ثمّ جاء معه وتغدّى عنده».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ذُكر اللحم عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما ذقته منذ كذا»[3].

ولشدّة زهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا تروي عائشة فتقول: «ما زالت الدنيا علينا عسرة كدرة حتّى قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما قُبض صُبّت الدنيا علينا صبّاً»[4].

وقالـت: «والـذي بعث محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحـقّ ما كان لنا منخل، ولا أكل النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم خبزاً منخولاً منذ بعثه الله إلى أن قُبض»[5].

---

(١) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٤، ص٢٤٤.

(٢) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٨، ص٣١.

(٣) م.ن، ص٢٠.

(٤) م.ن، ج١٦، ص٢٤٤.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٩، ص١٨٩.

وأمّـا لباسـه صلى الله عليه وآله وسلم: فيكفينـا أن نعلـم أنّـه صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما تقول عائشـة: «ما اتخذ من شـيء زوجين، لا قميصين ولا رداءين ولا إزارين، ولا من النعال، وكثيراً ما كان يلبس المُرقَّع من الثياب».

وأمّا مسكنه صلى الله عليه وآله وسلم: فقد كان غرفة واحدة، لكلّ زوجة من زوجاته، فيها ينام وفيها يجلس وفيها يأكل، وكان أثاثها بسيطاً زهيد الثمن، وكان فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومخدّته من جلد محشوّ بالليف.

يـروي أمـير المؤمنين عليه السلام فيقـول: «كان فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عباءة وكانـت مرفقته أدم حشوها ليـف.. وكان كثـيراً ما يتوسّد وسادة له من أدم حشوها ليـف، ويجلس عليها، وكانت له قطيفة فدَكيّة يلبسها يتخشّع بها، وكانت له قطيفة مصريّة قصيرة الخمل، وكان له بساط من شعر يجلس عليه»[٦].

ورُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ رجلاً من الأنصار أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صاعاً من رُطَب، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للخادمة التي جاءت به: أُدخلي فانظري هل تجدين في البيت قصعة أو طبقاً فتأتيني به؟ فدخلت ثمّ خرجت إليه فقالت: ما أصبت قصعة ولا طبقاً، فكنس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بثوبه مكاناً من الأرض، ثمّ قال لها: ضعيه ها هنا على الحضيض! ثمّ قال: والذي نفسي بيده لو كانت الدنيا تعدل عند الله مثقال جناح بعوضة، ما أعطى كافراً ولا منافقاً منها شيئاً»[٧].

وأمّا مدّخراته صلى الله عليه وآله وسلم: فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يدّخر شيئاً من المال ولا من الأشياء.

ويكفي أن نعلم أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لمّا تُوفّي ما ترك إلّا سلاحه وبغلته ودرعاً مرهونة.

فعن ابن عباس قال: "إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تُوفّي ودرعه مرهونة عند رجل من اليهود على ثلاثين صاعاً من شعير أخذها رزقاً لعياله".

وعـن الإمام علي عليه السلام: «نزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إنّ الله جلّ جلاله يُقرئك السـلام، ويقـول لك هذه بطحاء مكّة إن شئت أن تكون لك ذهباً، فنظر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء ثلاثاً ثمّ قال: لا يا ربّ ولكن أشبع يوماً فأحمدك، وأجوع يوماً فأسألك».

---

(٦) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٥٣.

(٧) م.ن، ص٢٨٤.

١٦

الدرس السادس عشر

الفتح المبين

الدرس السادس عشر

الفتح المبين

أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب سبب نقض قريش لصلح الحديبيّة، ونتائج ذلك.
٢. أن يستظهر كيفيّة فتح مكّة.
٣. أن يتعرّف إلى حنكة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وحسن إدارته، وسعة صدره.
٤. أن يُلخِّص أحداث معركة حُنَيْن، ويستفيد من دروسها.

قريش تَنقض العهد

كان من أحد بنود صُلح الحُديبيّة إقرار هدنة لمدّة عشر سنوات بين المشركين والمسلمين.
وقد استفاد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من حالة الأمن والاستقرار بعد أن كفّت قريش ممارساتها العدائيّة، وخطا صلى الله عليه وآله وسلم بعض الخطوات البعيدة المدى، وهادن الكثير من القبائل المعادية التي كانت تقطن إلى جوار المدينة، وعقد معاهدات صلح معها.

وبعد سنتين نقضت قريش معاهدة صُلح الحُديبيّة؛ وذلك عندما انضمّت إلى حلفائها من قبيلة "كنانة" التي أقدمت على مهاجمة قبيلة "خُزاعة" حليفة المسلمين مخالِفةً بذلك الهدنة القائمة بين الطرفين بموجب الصُّلح، فاستنصرت خُزاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وشعرت قريش بخطورة المجازفة التي أقدمت عليها فأوفدت أبا سفيان إلى المدينة، ليُؤكّد العهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليتفادى نتائج الأحداث، إلّا أنّ محاولاته في المدينة لم تُجدِ نفعاً بعدما رفض النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مقابلته لنقضه العهد.

أعلن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم النفير العامّ بين المسلمين، وجهّز جيشاً من عشرة آلاف مقاتل وقرّر الهجوم على مكّة، ولكنّه لم يكشف عن الوجهة التي يُريد أن يقصدها؛ لكي يُحافظ على مبدأ المُباغتة[1]، وليُصادر إمكانيّة الدفاع من يدها، ولئلّا يقع قتال في مكّة. وكان يدعو ربّه قائلاً: "اللهم خذ العيون والأخبار

---

(١) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج٤، ص٣٩.

مـن قريشـ نُباغتها في بلادهـا"[٢]. ولكنّ الخبر تسـرّب إلى حاطب بن بلتعة الـذي كتب إلى قريش بذلـك وأعطـى الكتاب إلى امـرأة، فوضعته في شعرهـا وتوجّهت إلى مكّة، فعـرف النبيّ ﷺ بهذا العمـل الجاسوسيّ الخطير، وبعث الإمام عليّاً عليه السلام والزبير ليقبضا عليها، فأدركاها في منطقة ذي الحليفـة، وانتزع منهـا الإمام عليه السلام الكتاب بالتهديد والقوّة وأرجعاها إلى المدينة. وفي شهر رمضان من العام الثامن للهجرة تحرّك الجيش الإسلاميّ سرّاً حتّى وصل إلى مشارف مكّة وطوّقها.

أسلوب الحرب

استخـدم النبيّ ﷺ الحرب النفسيّـة في هذه الغزوة، فأشعل النيران علـى الجبال على مقربة من مكّـة، ليُشعـر قريشاً بقوّة وكثرة الجيش، وليُثير الرعب في قلوب الطغـاة، وليحملهم على الاستسلام والخضوع من غير قتال ولا إراقة دماء.

خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وغيرهما ليتجسّسوا الأخبار ففوجئوا بالنيران تُطوّق مكّة، وفي هذه الأثنـاء التقى العبّاس بن عبد المطّلب بأبي سفيـان[٣] وأشار عليه بأنْ يذهب به إلى رسول الله ﷺ. وبعـد أن أخـذ له الأمان، رتّب له لقـاءً مع النبيّ ﷺ، وحصل اللقاء صبيحـة اليوم التالي، فقال له ﷺ: "ويحـك يـا أبا سفيان ألم يأنِ لـك أن تعلم أنّه لا إله إلّا الله" فقال: بأبي أنت وأمّي ما أحلمك وأكرمـك.. فقـال ﷺ: "ويحك يا أبا سفيان ألم يأنِ لـك أن تعلم أنّي رسول الله"؟ فقال: بأبي أنت وأمّـي مـا أحلمك وأكرمك وأوصلك، أمّا هـذه والله فإنّ في النفس منها حتّـى الآن شيئاً. وهنا تدخّل العباسـ لإنقاذ أبي سفيان، فشهد أبو سفيان للنبيّ ﷺ بالنبوّة، وفي نفسه أشياء وأشياء ظلّت حتّى موته.

كان إسلام أبي سفيان بمثابة إزالة لكلّ العقبات أمام إسلام البقيّة من زعماء الكفر من قريش، ولكنّ النبيّ ﷺ استتماماً للضغط النفسيّ على قريش، ولكي تستسلم دون إراقة الدماء، قال للعبّاس: "يا عبّاس، احبسه بمضيق الوادي عند خضمّ الجبل حتّى تمرّ به جنود الله فيراها".

---

(٢) الواقدي، المغازي،ج ٢، ص٧٩٦.

(٣) راجع ابن هشام، السيرة النبويّة،ج٤، ص٤٢ ـ ٤٤ ـ ٤٦.

ولإشاعـة الاطمئنان إلى رحمة الإسلام، ورحمة النبـيّ ﷺ، وإرضاءً لغرور أبي سفيان كي لا يُكابر قال ﷺ: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن طرح السلاح فهو آمن" [1].

دخول مكّة

ودخـل رسـول الله ﷺ مكّة بتلك الحشود التي تنساب خلفه فاتحاً من غير قتـال، فلمّا انتهى إلى الكعبـة تقـدّم على راحلته فاستلم الركن وكبَّر، فكبَّر المسلمون لتكبيـره، ثمّ طاف بالبيت، وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستّون صنماً وكان "هُبل" أعظمها، فقال ﷺ للإمام عليّ عليه السلام: «أعطني يا عليّ كفّـاً من الحصى»، فقبض له الإمام عليه السلام كفّاً فناولـه، فرماها به وهو يقول: ﴿**قُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾[2]، ثمّ أمر بالأصنام فأُخرجت من المسجد فطُرحت وكُسرت، ثمّ أمر أن تُفتـح الكعبـة، فدخلها وصلّى فيهـا وأزال كلّ ما كان فيها من تماثيل وصور، ثـمّ أشرف من بابها علـى النـاسـ وقال: «لا إله إلّا الله وحده لا شريك له الذي صـدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده..»[3]، ثمّ توجّه إلى المكّيّين وسألهم: «ماذا تَرَون أنّي فاعل بكم»؟ فقالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخٍ كـريم، فقـال ﷺ: «إنّي أقول لكم ما قال أخي يوسـف لإخوته، لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، إذهبوا فأنتم الطلقاء»[4].

وبذلـك ضرب الرسول ﷺ للأجيال في كلّ عصرٍ وزمان مثلاً في الرحمة والعفو والترفُّع عن الحقد والانتقام.

<u>وكان من نتائج هذا الفتح:</u>

- سقوط القلعة الحصينة والقاعدة المركزيّة للمشركين، وولّى عهد عبادة الأصنام إلى غير رجعة،
- وبعـد سقـوط مكّة أخذت وفود القبائـل تأتي وتُعلن إسلامها وطاعتها للإسلام عدا قبيلتي هوازن وثقيف اللتين أسلمتا بعد غزوة حُنَيْن.

(١) راجع: ابن هشام، السيرة النبويّة، ج٢، ص ٤٠١.

(٢) الإسراء: ٨١.

(٣) راجع: ابن هشام، السيرة النبويّة، ج٢، ص ٤١٦.

(٤) م.ن، ص٤١١.

غزوة حُنين [٥]

شـكّل فتح مكّـة وانتصار النبيّ (ص) العظيم عهداً جديداً من التوحيـد، بعد طول فترةٍ من الشرك. وترامـت إلى أسمـاع النبـيّ (ص) أنّ قبيلتي هوازن وثقيف قـد أعدّتا العُدَّة لمحاربـة الإسلام، فعزم (ص) علـى الخروج لملاقاتهم قبل أن يُفاجِئوه بالجيش الكبير الذي نظّموه بالتعاون مع بعض القبائل الأخرى، بقيادة مالك بن عوف زعيم هوازن[٦].

انطلـق النبـيّ (ص) من مكّة في مطلع شوّال علـى رأس اثني عشر ألف مقاتل، وعـيّن عتاب بن أسيد لإدارة الأمور في مكّة. وسرعان ما وجد المسلمون أنفسهم مضطرّين إلى اجتياز وادٍ من أودية تهامة، شديـد الانحدار يُدعـى حُنيناً، في طريقهم لمواجهة التجمّع الوثنـيّ. وكان المشركون قد سبقوهم إلى الوادي واتخذوا مواقع لهم في شعابه، وتهيّئوا للانقضاض على المسلمين في جوٍّ يسوده المطر والضباب. ومـا إنْ دخل المسلمون الوادي حتّى فاجأهم أعداؤهم بهجـوم مُباغِت، فأصابهم الفزع والاضطراب وفـرّوا راجعـين لا يلـوون على شـيء، ولم يثبت مع النبـيّ (ص) غير الإمام علـيّ (ع) وجماعة من بنـي هاشم [٧]، والنبيّ (ص) يُنادي بالمسلمين، ثمّ أمـر عمّه العبّاس أن يلحق بالفارّين ويُناديهم، ولمّا سمـع المسلمون صوت العبّاس، وأنزل الله السكينة على قلوب المؤمنين منهم، بادروا للعودة إلى ساحة المعركـة واستقبلوا العدوّ بصدورهـم، وقاتلوا ببسالة على قِلّتهم بعدمـا رأوا رسول الله (ص) يُباشر القتال بنفسه بشجاعة ومن حوله الإمام عليّ (ع) وبنو هاشم.

تمكّن الإمام (ع) من قتل حامل راية هوازن، وبدأت الكفّة تميل لصالح المسلمين، وما لبث المشركون أن أخـذوا بالتراجـع، وأُصيبـوا بالهزيمة وفرّوا من أرضـ المعركة، تاركين وراءهـم الأموال والنساء والأولاد، وأسر المسلمون منهم أربعة آلاف أسير مع ٢٤ ألف بعير[٨].

---

(٥) حنين: وادٍ إلى جانب ذي المجاز أو ماء إلى قرب الطائف، يبعد ثلاث ليال عن مكّة.

(٦) الطبرسي، إعلام الورى، ص ١١٣.

(٧) الطوسي، الأمالي، ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥.

(٨) تاريخ الطبري، ج٣، ص١٣٢.

حصار الطائف

واصلت قوّات المسلمين ملاحقتها للعدوّ، وتراجع المشركون بقيادة مالك بن عوف صوب الطائف، وعسكر بعضهم في "أوطاس"، وتوجّهت فئة أخرى نحو "نخلة" فلحق المسلمون بهم إلى هاتين المنطقتين وأوقعوا بهم شرّ هزيمة.

تمكّن مالك بن عوف من الفرار مع بعض الجيش إلى الطائف، واعتصم بحصونها المنيعة وأعدّ العُدَّة مع جيشه للقتال، فحاصرهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بضعاً وعشرين يوماً، وحصل قتال عنيف استعمل فيه المسلمون لأوّل مرّة آلات الحصار كالمنجنيق، ونظراً لاقتراب شهر ذي القعدة الذي هو من الأشهُر الحُرم قرّر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رفع الحصار؛ لأنّه لم يَعُد يرى خطراً من ترك الطائف إلى فرصةٍ أخرى.

وفي طريق عودته صلى الله عليه وآله وسلم وعند وصوله إلى "الجعرانة" محلّ تجميع الأسرى والغنائم أرسلت إليه هوازن وفداً لالتماس العفو عنده، وأعلنوا إسلامهم، فردّ عليهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نساءهم وأموالهم، وجاء زعيمهم مالك بن عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معلناً إسلامه بعد أن سمع مقولة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: "أخبروا مالكاً أنّه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل"، وردّ عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أهله وماله.

وبعد تقسيم الغنائم على المسلمين في "الجعرانة" اتّجه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكّة في شهر ذي القعدة، فأتمّ عمرته وأحلّ من إحرامه واستخلف على مكّة عتاب بن أسيد ومعه معاذ بن جبل لتعليم الناس القرآن وأحكام الدين، وخرج مُتّجهاً إلى المدينة بمن معه من المهاجرين والأنصار، بعد هذين الانتصارين العظيمين وهما: فتح مكّة، وهزيمة جيشٍ مؤلّف من ثلاثين ألف مقاتل في حُنين.

دروس من حُنين

يُمكن لنا أن نستخلص من غزوة حُنين بعض الدروس والعِبَر، منها:

١. إنّ غرور المسلمين بأنفسهم، في بداية المعركة، وإعجابهم بكثرتهم وقوّتهم كان السبب الأساس في الهزيمة، فأراد الله تعالى أن يُعلِّمهم أنّ الكثرة لا تُغني شيئاً؛ عندما تفقد الأمّة عناصر الإيمان والإخلاص والصبر والتوكّل على الله.

قال تعالى: **﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾**[1] .

٢. إنّ القلّة التي ثبتت في ساحة القتال هي التي حقّقت الانتصار في حُنين، وهم الذين أنزل الله تعالى عليهم السكينة والطمأنينة. **﴿ثُمَّ أَنَزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴾**[2].

خلاصة الدرس

- كان نقض قريش لأحد بنود صلح الحديبيّة مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سبباً لتوجُّه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بشكلٍ سرّي وسريع نحو مكّة، وتمّ فتحها بغتةً. وكان استسلام أهل مكّة عملاً هائلاً في تأريخ حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فقد توقّف النشاط المعادي للإسلام من أخطر مركز باشر العداء للدين الجديد لأكثر من عشرين عاماً.
- مهّد هذا الفتح الطريق لاستسلام الجزيرة العربيّة كلّها، وسُمّيّ العام الثامن الهجريّ بعام الفتح. وأصبح المسلمون سادة مكّة وحماة البيت الحرام.
- أحدث فتح مكّة واستسلامها للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ردّ فعلٍ عنيفٍ لدى القبائل العربيّة، كهوازن وثقيف وحاولت أن تُوجّه ضربتها للإسلام، وأفلحت في أوّل الطريق، ولولا ثبات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام وثلّة من المؤمنين لاكتسحت هاتان القبيلتان قوّات المسلمين.
- كانت غزوة حُنين تجربة قيّمة للمسلمين؛ لئلّا يغترّوا بكثرة العدد، فإنّ قُدرة الإيمان هي التي تُؤدّي إلى النصر دائماً.

---

(١) التوبة: ٢٥.

(٢) التوبة: ٢٦.

للمطالعة

شجاعة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وثباته

إذا أردنا أن نُكوِّن فكرة واضحة عن مدى شجاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلنستمع إلى شهادة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو يصف شجاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشدّ الناس يومئذٍ بأساً»[1].

وقال عليه السلام أيضاً: «كنّا إذا احمرّ البأس ولقي القومُ القومَ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدوّ منه»[2].

ورُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «أغار المشركون على سرح المدينة فنادى فيها منادٍ: يا سوء صاحباه[3]!، فسمعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الجبل، فركب في طلب العدوّ، وكان أوّل أصحابه لحاقاً به أبو قتادة على فرس له، وكان تحت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرج دفّتاه ليف ليس فيه أشر ولا بطر، فطلب العدو فلم يلقوا أحداً، وتتابعت الخيل فقال أبو قتادة: يا رسول الله إنّ العدوّ قد انصرف فإن رأيت أن نستبق. فقال: نعم، فاستبقوا فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سابقاً عليهم، ثمّ أقبل عليهم فقال: أنا ابن العواتك من قريش، إنّه لهو الجواد البَحر، يعني فرسه»[4].

ولمّا انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أُحُد، أدركه أُبيّ بن خلف الجمحيّ وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوتَ، فقال القوم: يا رسول الله ألا يعطف عليه رجلٌ منّا؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "دعوه"، حتّى إذا دنا منه ـ وكان أبيّ قبل ذلك يلقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: عندي رمكة أعلفها كلّ يوم فرق ذرة اقتلك عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "بل أنا أقتلك إن شاء الله" ـ تناول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحربة من الحارث بن الصمّة ثمّ استقبله فطعنه في عنقه فخدش خدشة، فتدهده عن فرسه وهو يخور خوار الثور وهو يقول: قتلني محمّد، فاحتمله أصحابه وقالوا: ليس عليك بأس. فقال: بلى. لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومضر لقتلتهم، أليس قال لي: أقتلك؟ لو بزق عليّ بعد تلك المقالة لقتلني، فلم يلبث يوماً حتّى مات[5].

---

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١٦، ص٢٣٢.

(٢) م.ن

(٣) وفي روايات أخرى، يا سوء صباحاه.

(٤) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج ١٩، ص١٧١.

(٥) ١٩–م. ن. ج٢٠، ص٢٦.

١٧

الدرس السابع عشر

مؤامرات اليهود وحروب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم معهم ١

الدرس السابع عشر

مؤامرات اليهود وحروب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم معهم ١

أهداف الدرس:

١. أن يتبيّن الطالب الموقف العدائيّ والعنصريّ لليهود.

٢. أن يستظهر سبب تحويل القبلة.

٣. أن يسرد أسلوب مواجهة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لليهود.

٤. أن يعدّد أسباب الحرب الشاملة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ضدّ اليهود وإجلاءهم عن المدينة.

مخالفات اليهود

اليهود قومٌ نفعيّون، يتّسمون بالتعنُّت والتكبُّر، وقفوا موقفاً عنصريّاً من نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم لكونه غير يهوديّ، ولأنّهم كانوا يَحْظَون بمكانة اقتصاديّة واجتماعيّة في يثرب، ويحتكرون الزراعة وأكل الربا، وكانوا يستغلّون الخلافات بين الأوس والخزرج، فقد أعلنوا عدائهم للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد العهود والمواثيق، عندما شعروا بأنّ القوّة ستكون بيد المسلمين في المستقبل القريب، وأنّهم سيفقدون مكانتهم لأنّ الناس اتّحدوا تحت لواء الإسلام، وتعبيراً عن حقدهم على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قالوا: "ما يُريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلّا خَالَفَنَا فيه" (١).

أخذ اليهود بتبديل موقفهم من الرسالة وانتهجوا أسلوب المخالفة، ووضع العراقيل من خلال عرض مجموعة من المطالب التعجيزيّة وغير المنطقيّة، مثل طلبهم إنزال كتاب من السماء عليهم، وإثارة الأسئلة الدينيّة المعقّدة بهدف تشويش أذهان المسلمين، وعملوا على زرع الفتنة بين المسلمين، وحاولوا بعث الأحقاد القديمة بين الأوس والخزرج (٢).

---

(١) الحلبي، ج ٢، ص٣٣٢.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص١٦٠، والمناقب، ج ١، ص٥٤.

تحويل القبلة

كان النبـيّ ﷺ أثنـاء إقامته في مكّة، ومدّةً مـن بعد الهجرة، يُصلّي باتجاه بيـت المقدس بأمر من الله تعالى. وبعد أن أسفر اليهود عن عدائهم، اتّخذوا قضية القبلة ذريعة لنفث سموم إعلامهم ضدّ رسـول الله ﷺ، وقالوا بأنّه لا استقلاليّة لـه في دينه، وإنّه يُصلّي باتجاه قبلتنا، فتأذّى الرسول من هذا الوضع. وبعد سبعة عشر شهراً من الهجرة نزل عليه جبرئيل عليه السلام وأبلغه أمر تحويل القبلة نحو الكعبـة بعدما صلّى ركعتين من صلاة الظهر نحـو بيت المقدس. فكان ذلك الحدث أمراً صعباً مريراً على اليهود، ولم يَعُد لديهم ذريعة لإطلاق الدعايات ضدّ المسلمين[٣].

اليهود في مواجهة الإسلام

حاول اليهود مواجهة الإسلام بكلّ ما لديهم من قوّة عبر الأساليب التالية:

١. تشكيك البسطاء وضعاف النفوس بالإسلام.

٢. طـرح الأسئلـة التعجيزيّة على النبـيّ ﷺ بهدف إفشال دعوته، للإيحـاء للناس بعدم صدقه في ادعائه للنبوّة، وقد حدّثنا القرآن عن ذلك: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللهِ جَهْرَةً**﴾[٤].

٣. الضغـط الاقتصاديّ علـى المسلمين من خلال رفضهم أن يُقرضوا المسلمين مالاً في بداية إقامتهم في المدينة؛ حيث كان المسلمون في ضنكٍ مادّيٍّ شديد.

٤. تحريض أعداء الإسلام ومساعدتهم بكلّ ما أمكنهم ولو بالتجسُّس.

٥. إثارة الفتن بين المسلمين.

٦. تآمرهم على حياة النبيّ الأعظم ﷺ، وتحريضهم الناس عليه.

٧. نقضهم للعهود والمواثيق التي أبرموها مع النبيّ ﷺ في المدينة كلّ مرّة.

موقف النبيّ ﷺ من اليهود:

باءت جميع محاولات اليهود في القضاء على الإسلام بالفشل الذريع، بسبب الوعي والحكمة والأسلوب الذي واجههم به النبيّ ﷺ، والذي يتلخّص باتجاهين:

(٣) راجع الآيات الكريمة التي نصّت على تحويل القبلة في سورة البقرة، من الآية: ١٤٤.

(٤) النساء: ٥٣.

الأوّل: الاغتيالات المنظّمة لرموزهم وبعض أفرادهم

فقد تمّ اغتيال بعض أفرادهم ورموزهم الذين ظهر كيدهم، فاغتيل أبو عفك اليهوديّ، الذي كان يُحرِّض على رسول الله ﷺ ويهجوه في الشعر، على يد سالم بن عمير، وقُتلت العصماء بنت مروان اليهوديّة على يد عمير بن عون ليلاً، حيث كانت تعيب الإسلام والمسلمين، وتؤنّب الأنصار على اتّباعهم لرسول الله ﷺ، وتقول الشعر في هجوه ﷺ، واغتيل كعب بن الأشرف الذي ذهب إلى مكّة بعد "حرب بدر" وحرّض المشركين على حرب رسول الله ﷺ، وكان يتعرّض بالأذى لنساء المسلمين، واغتيل ابن سنينة وأبو رافع ابن أبي الحقيق من يهود خيبر وغيرهما...

هذه الاغتيالات أدخلت الرعب إلى قلوب اليهود لدرجةٍ أنّه لم يبق في المدينة ومحيطها يهوديّ إلّا وهو خائف على نفسه.

الثاني: الحرب الشاملة والمصيريّة ضدهم

على الرغم من الاغتيالات لم يتراجع اليهود عن التحريض والتآمر، واستمرّوا في عنادهم وتماديهم في إيذاء المسلمين ونشر الفساد، ونقضهم للمعاهدات التي وقّعوا عليها بملء اختيارهم، فكانت الحرب الشاملة والمصيريّة ضدّهم، فحاربهم النبيّ ﷺ في داخل المدينة "بني قينقاع، وبني النضير"، وحارب في محيطها "بني قريظة"، وحاربهم في خيبر التي كانت تُمثِّل المعقل الأساس لهم في شبه الجزيرة العربيّة.

حروب النبيّ ﷺ ضدّ اليهود:

١. غزوة بني قينقاع

نظراً لكثرة المؤامرات والإفساد الذي مارسه اليهود ضدّ النبيّ ﷺ، ونقضهم للعهود والمواثيق معه، رأى النبيّ ﷺ في هذه الممارسات اليهوديّة سبباً وفرصةً للتخلُّص من شرِّهم ومكرهم، فكان أوّل عملٍ منه تجاههم هو مواجهة بني قينقاع وإجلاؤهم عن المدينة. والسبب الذي حمل الرسول ﷺ على البدء بإجلاء بني قينقاع من المدينة دون غيرهم هو: أنّهم كانوا يسكنون داخل المدينة، وكانوا أوّل من غَدَرَ وخان من اليهود. ويذكر المؤرِّخون أنّ بني قينقاع كانوا يُمسكون بخيوط اقتصاد المدينة، وأكثر الناس خطراً على المسلمين لأنّهم يعيشون بينهم، ومارسوا الكثير من الأعمال الإيذائيّة، وقاموا بالحرب الباردة الإعلامية ضدّهم، ونشروا الأكاذيب والشعارات القبيحة، وأنشدوا القصائد التي

مـن شأنها تحقير المسلمين والإساءة إليهم. وكانوا قد عاهدوا النبيّ ﷺ على المسالمة وعدم معاونة الأعـداء، فلمّا كانت حرب بدر أظهروا البغـي والحسد ونقضوا العهد، وكانوا أوّل من استجاب لطلب قريش في نصـب العـداء للمسلمين والغدر بهـم. وقد صعّدوا مـن تحدّيهم للمسلمـين عندما دخلت امـرأة مسلمة سـوق الصاغة في المدينة ـ الذي كان تحت سيطرتهم ـ فاجتمع عليها جماعة من اليهود وأرادوهـا أن تكشـف عن وجههـا فأَبَت، فعمد يهوديٌّ من خلفها وعقد طـرف ثوبها إلى ظهرها، فلمّا قامـت انكشفـت سوأتها فضحكوا منهـا، فصاحت تستغيث بالمسلمين، فوثب رجـلٌ من المسلمين على مـن فعل ذلك فقتلـه، وشدّ اليهود على المسلم فقتلـوه، فاستنجد أهل المسلـم بالمسلمين، ووقع بينهم وبـين بني قينقـاع الشرّ، فجمع النبيّ ﷺ اليهود وحذّرهم وطلب منهـم أن يكفّوا عن أذى المسلمين ويلتزموا بعهد الموادعة، أو يُنزِل بهم ما أنزله بقريش، فقالوا له: «لا يَغُرَّنّك يا محمّد أنّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة مكّنتك من رقابهم، إنّا والله لئن حاربناك لتعلَمنّ أنّا نحن الناس، وسترى منّا ما لم تره من غيرنا» (١).

فأنزل الله تعالى على نبيّه ﷺ بهذه المناسبة قوله تعالى: **﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ❖ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾** (٢).

ولذلـك لم يبق أمـام النبيّ ﷺ إلّا أن يُقاتلهم، فسار إليهـم، وكان عددهم حوالي سبعمائة مقاتل، وسلّـم الراية للإمام علـيّ عليه السلام، وحاصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة أشدّ حصار، فقذف الله في قلوبهم الرعب، واستسلموا، وطلبوا من النبيّ ﷺ أن يُخلّي سبيلهم وينفيهم من المدينة، على أن يكـون لهم نساؤهـم والذريّة، وله أموالهم والسلاح، فقبل منهم ذلك، فـوزّع أموالهم وأسلحتهم على المسلمين، وطردهم من المدينة إلى أذرعات بالشام(٣).

---

(١) راجع تاريخ الطبري، ج٢، ص١٧٢.

(٢) آل عمران: ١٢ ـ ١٣.

(٣) راجع للتفصيل: السبحاني، جعفر، سيّد المرسلين، مؤسسة النشر الإسلاميّ، قم، ط١، ١٤١٣هـ، ج ٢، ص١٢١ وما بعدها.

٢. غزوة بني النضير

وصلت معلومات إلى النبيّ ﷺ مفادها أنّ بني النضير يُخطِّطون لاغتياله، فقرّر إجلاءهم عن مواضعهم بعد أن ظهر للعيان فسادهم. وتعامل معهم النبيّ ﷺ بالرفق والتسامح، حيث أنذرهم في البداية بأنّ يخرجوا من حصونهم وينزحوا من يثرب في مدّة عشرة أيّام، ولكنّهم رفضوا الإذعان له أوّل الأمر، ثمّ بدا لهم الإذعان لحكمه ﷺ ورضوا بالجلاء عن يثرب، لكنّ جماعة من المنافقين من بني عوف وعلى رأسهم عبد الله بن أُبيّ بعثوا إليهم: "أن اثبتوا وتمنّعوا فإنّا لا نُسلمُكم. إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم"[1].

إلّا أنّ عبد الله بن أُبي خذلهم وغدر بهم، وأنزل الله سبحانه بهذه المناسبة: ﴿**أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ❖ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ**﴾[2] لذلك امتنعوا عن الإذعان لحكم النبيّ ﷺ واحتموا خلف حصونهم، وفي ذلك يقول القرآن: ﴿**لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ...**﴾[3]. وكانت حصونهم مُحْكَمة، وكان من غير المُمكن فتحها في مدّة وجيزة، فأمر الرسول ﷺ بقطع نخيلهم وحرقها، ولعلّ النخيل الذي أُحرق كان يُعيق حركة القتال. ولمّا عاب اليهود على النبيّ ﷺ ذلك، أنزل الله تعالى: ﴿**مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ**﴾[4].

وكان قطع النخل ضروريّاً ولازماً من أجل قطع آمال بني النضير، وخزيهم وخزي سائر حلفائهم وفي مقدّمهم عبد الله بن أُبي ومن معهم من المنافقين، وكذلك لإفهامهم تصميم النبيّ ﷺ على المواجهة والتحدّي حتّى يفقدوا الأمل بجدوى المقاومة. ويظهر أنّ قطع النخيل وإحراقه، كان سبباً في تسرُّب اليأس إلى قلوبهم، إذ وجدوا أنفسهم أمام خيارين: إمّا الإذعان لحكم النبيّ ﷺ، وإمّا

(١) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج ٢، ص٢٠٠.

(٢) الحشر: ١١-١٢.

(٣) الحشر: ١٤.

(٤) الحشر: ٥.

الخـروج من المدينة لمهاجمـة المسلمين ومنعهم من إحـراق نخيلهم، فاختاروا الإذعـان لحكم النبيّ صلى الله عليه وآله، خاصّـة بعـد أن تَمكَّن الإمام علـيّ عليه السلام من قتل عشرة من فرسانهـم، فطلبوا منه صلى الله عليه وآله أن يُجليهم ويكفّ عنهم، على أنّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلّا السلاح، فرضي النبيّ صلى الله عليه وآله بذلك.

ويُشير القرآن إلى غرور بني النضير وامتناعهم بحصونهم، ظانّين أنّها ستمنعهم من أمر الله تعالى، كمـا يُشير إلى هزيمتهـم وتخريبهم بيوتهم بأيديهـم وأيدي المؤمنين المجاهديـن بقوله تعالى: **﴿هُوَ الَّـذي أَخْـرَجَ الَّذينَ كَفَـرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْـرِ مَا ظَنَنتُـمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُـم مَّانِعَتُهُـمْ حُصُـونُهُم مِّـنَ اللهِ فَأَتَاهُـمُ اللهُ مِـنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِـبُوا وَقَـذَفَ فِي قُلُوبِهِـمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾**[٥].

خلاصة الدرس

- وقف اليهود من النبيّ صلى الله عليه وآله موقفاً عدائيّاً وعنصريّاً لكونه غير يهوديّ، ونقضوا العهود والمواثيق التي أبرموها معه مرّات عديدة، وعملوا على زرع الفتنة بين المسلمين.
- توجّـه النبيّ صلى الله عليه وآله في صلاتـه إلى بيت المقدس، فاستغلّ اليهود هـذه القضيّة لتكون ذريعةً لنفث سمومهـم ضدّه صلى الله عليه وآله، فتأذّى النبيّ صلى الله عليه وآله من ذلك، فأنزل الله تعالى عليه الوحي يأمره بالتوجُّه في الصلاة إلى الكعبة الشريفة.
- واجـه اليهـود النبيّ صلى الله عليه وآله بأساليـب عدائيّة مختلفة، وطرحـوا الأسئلة التعجيزيّـة، وعملوا على الضغط الاقتصاديّ على المسلمين، وحرّضوا أعداء الإسلام عليه صلى الله عليه وآله فواجههم بالاغتيال لكبار أصحاب الفتنة منهم.
- وحيـث لم تردع هذه الطرق اليهود عـن الاستمرار في غيّهم، أعلن النبـيّ صلى الله عليه وآله الحرب الشاملة ضدّهم فحارب بني قينقاع وبني النضير الموجودين في داخل المدينة، وأجلاهم عنها.

(٥) الحشر: ٢.

للمطالعة

منطق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

لقد اتّفق جميع الذين وصفوا منطق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان أحسن الناس منطقاً.

فقد سأل الإمام الحسن عليه السلام هند بن أبي هالة التميميّ أن يصف له منطق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «كان رسول الله متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلّم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه، الأشداق جوانب الفم أي لا يفتح فاه كلّه ويتكلّم جوامع الكلم فصلاً لا فضولاً ولا تقصيراً فيه، دمِثاً ليس بالجافي ولا المَهين، يُعظِّم النعمة وإن دقّت ولا يذمّ منها شيئاً، ولا يذمّ ذوّاقاً ولا يمدحه، ولا تُغضبه الدنيا وما كان لها، إذا تُعوطي الحقّ لم يعرف أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتّى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصرُ لها، إذا أشار أشار بكفّه كلّها، وإذا تعجّب قلبها، وإذا تحدّث أشار بها فضرب راحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غضّ من طرفه، جُلُّ ضحكه التبسّم ويفتر عن مثل حبِّ الغمام» [1].

وإذا أردنا أن نبحث عن مكوّنات حلاوة منطقه صلى الله عليه وآله وسلم وحُسنه لحصلنا من ذلك على العناصر التالية:

ترك الفاحش من القول: فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سَبَّاباً ولا فَحّاشاً، بل كان أبعد ما يكون عن الفُحش والبذاءة في الكلام. فقد رُوي أنّه قيل له: يا رسول الله ادعُ على المشركين! فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّي لم أُبعث لعّاناً وإنّما بُعثت رحمة» [2].

فصاحة لسانه: فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصيح اللسان، إذا تكلّم تكلّم بأناة وهدوء.

تبسّمه أثناء التكلُّم: قال أبو الدرداء: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا حدّث بحديث تبسّم في حديثه [3].

تكليمه للناس على قدر عقولهم: فكانت أساليب عرضه للأفكار وإجاباته عن الأسئلة تختلف في البُعد والمستوى من شخص لآخر، طبقاً للقابليّات الذهنيّة التي يتمتّع بها الأفراد، وإلى هذا أشار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «إنَّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نُكلِّم الناس على قدر عقولهم» [4].

(١) الطبرسيّ، مكارم الأخلاق، ص١٣.

(٢) الشيخ الأميني، الغدير، ج٨، ص٢٥٢.

(٣) م.ن، ص٩٢.

(٤) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٢٣.

١٨

الدرس الثامن عشر

مؤامرات اليهود وحروب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم معهم ٢

الدرس الثامن عشر

مؤامرات اليهود وحروب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم معهم ٢

أهداف الدرس

١. أن يتبيّن الطالب سبب غزوة بني قريظة.

٢. أن يستظهر خلفيّة العلاقة بين اليهود والمنافقين.

٣. أن يُلاحظ نتائج انتصار المسلمين في معركة خيبر.

٤. أن يُدرك فضل أمير المؤمنين عليه السلام في فتح حصن خيبر على يديه.

حروب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ضدّ اليهود:

٣. غزوة بني قريظة

لقد كان بين يهود بني قريظة وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد واتفاق على أن لا يُحاربهم ولا يُحاربوه، ولا يُعينوا عليه أحداً، غير أنّهم نقضوا العهد وتعاونوا مع قريش والمنافقين في معركة الأحزاب ضدّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته.

وبعد جلاء الأحزاب عن المدينة سمع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بخيانتهم، فأرسل إليهم سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة، لتذكيرهم بالعهد والميثاق، فأساؤوا الردّ، وأصرّوا على نقض العهد، فسكت عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى هُزمت قريش والأحزاب، وكسب المسلمون معركة الخندق.

وفي نفس اليوم الذي رجع فيه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من ساحات المواجهة في الخندق قرّر الهجوم عليهم حتّى إنه صلى الله عليه وآله وسلم أمر من كان معه من المسلمين ألّا يُصلّوا العصر إلّا في بني قريظة، لكسب الوقت، واستثمار الموقف النفسيّ المنهار لدى اليهود وحلفائهم من المشركين والمنافقين، ولكي لا يُعطيهم الفرصة لإعادة ترتيب أوضاعهم وإنشاء علاقات تزيد في قوّتهم.. فأعطى رايته للإمام عليّ عليه السلام وتبعه المسلمون بالرغم ممّا كانوا عليه من التعب والسهر خلال حصار الأحزاب لهم.

طوَّق المسلمون اليهود في حصونهم وأخذوا يرمونهم بالحجارة والسهام، ولم يجرؤ بنو قريظة على أن يخرجوا من حصونهم طوال مدّة الحصار؛ لأنّ المسلمين أحاطوا بهم من جميع الجهات، واستمرّ الحصار أيّاماً، وقيل: عشرة أيّام، وقيل: أكثر من ذلك.

وخلال الحصار أرسل صلى الله عليه وآله وسلم إليهم بعض أصحابه لمواجهتهم فرجعوا مُنهزمين، فبعث الإمام عليّاً عليه السلام فكان الفتح على يديه، فاستسلموا، وطلبوا من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يُعاملهم كما عامل بني النضير من قبل، فأبى عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، وعرض عليهم أن يختاروا من الأوس ـ وهم حلفاؤهم ـ من شاؤوا ليحكم فيهم، فاختاروا سعد بن معاذ، ونسوا موقفهم مع سعد حينما نقضوا العهد، وانضمّوا إلى الأحزاب ولم يستجيبوا إليه عندما حذّرهم من ذلك.

فحكم سعد فيهم بقتل الرجال أي المقاتلين منهم فقط ممن نقض العهد وقاتل، وسبي النساء والذراري ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم[1]. ولا شكّ في أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يرى فيهم هذا الرأي، لأنّه إذا عفا عنهم اليوم فسيُمثِّلون معه نفس الدور الذي مثّلوه بالأمس حينما انضمُّوا لأعدائه وتآمروا سرّاً معهم، فهو صلى الله عليه وآله وسلم لم يأمن الغدر والتآمر اليهوديّ ضدّه مرّة أخرى، بل ربّما يشتدّ خطرهم لو تركهم ويستعصي على المسلمين بعد ذلك استئصالهم.

لذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتنفيذ حكم "سعد" في حقّ من قاتل منهم، وخرج إلى سوق بالمدينة فحفر بها الخنادق وقتل من قاتله منهم من الرجال، وأسر النساء والأولاد. وقد اختلف المؤرِّخون في عدد القتلى والأسرى منهم، لكنّ الأقوال في ذلك تتراوح في عدد القتلى ما بين الثلاثمائة رجل والألف، بينما بلغ عدد الأسرى ما بين السبعمائة وخمسين والألف. وبذلك تخلّص المسلمون من أشدّ أعداء الدولة الداخليّين؛ حيث قضت هذه الغزوة القضاء التامّ على جماعات اليهود في المدينة، الذين كانوا يُهدِّدون أمنها واستقرارها بالتآمر والتجسُّس والإشاعات والتخريب.

وقد أشار القرآن الكريم إلى انسحاب جيوش الأحزاب وغزوة بني قُريظة وانتصار المسلمين فيها بقوله تعالى: **﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ❖ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ❖ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾**[2].

(١) راجع لمزيدٍ من التفاصيل حول هذه الغزوة، بحار الأنوار: ج٢٠، ص٢٣٣ ـ ٢٣٨، وتاريخ الطبري: ج٣، ص٥٣.

(٢) الأحزاب: ٢٥ ـ ٢٧.

٤. معركة خيبر

كان يهود خيبر من أقوى الطوائف اليهوديّة في بلاد الحجاز وأكثرهم عدداً وعُدَّة وأمنعهم حصوناً، فخيبر قرية من قُرى اليهود المجاورة للمدينة، تقع على قِمّة جبل، ويُحيطها حصنٌ حجريّ ظنّ أهله أنّه مانعهم من إرادة الحقّ[١]، وسيوف المجاهدين المؤيَّدين بنصر الله سبحانه. ويهود خيبر على عادة اليهود، قد استحكم بهم الغرور، وغرّهم المال والسلاح الذي بأيديهم.

وفي حصون خيبر عشرة آلاف مقاتل، كانوا يخرجون كلّ يوم صفوفاً يستعرضون قوّتهم، ويسخرون من قوّة المسلمين وهم يُردِّدون "محمّد يغزونا، هيهات! هيهات!" [٢].

وهذا الاعتداد بالقوّة لم يكن ليخدع يهود خيبر وحدهم، بل كان يهود المدينة الذين يعيشون وسط المسلمين قد انخدعوا به أيضاً، فراحوا يُهدِّدون المسلمين بتلك القوّة، ويحاولون إظهار التفوُّق العسكريّ لخيبر على المسلمين، وذلك لإشاعة الحرب النفسيّة، وإضعاف الروح المعنويّة للمسلمين.

وكانوا يُردِّدون على مسامع المسلمين: "ما أمنع والله خيبر منكم، لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها، لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم. حصونٌ شامخات في ذُرى الجبال، إنّ بخيبر لألف دارع، وما كانت "أسد" و"غطفان" يمتنعون من العرب قاطبة إلّا بهم، فأنتم تُطيقون خيبر؟!"[٣].

أمّا الإعلام الإسلاميّ في المدينة فكان يردّ منطلقاً من الثقة بالله، والإصرار على الجهاد والمقاومة: إنّ الله قد وعد نبيّه أن يُغنمه خيبر[٤]، ولا خُلف لوعد الله بالنصر. وفي ظلّ هذه الأجواء راح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يصبر ويُصبِّر على كلّ أذى خيبر بسبب ما كانت تُمارسه ضدّ الإسلام والمسلمين.

فمنها: انطلق زعماء اليهود لدعوة القبائل العربيّة وتحزيبها ضدّ المسلمين في غزوة الخندق، وقد بذلوا الأموال في ذلك.

ومنها: خرج حييّ بن أخطب ودفع بني قريظة إلى نقض العهد في اللحظات العصيبة. وقد غدت خيبر

(١) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج٤، ص٣٦٠.

(٢) الواقدي، المغازي، ص ٦٣٧ ـ ٧٠٣، وهيهات اسم فعلٍ ماضٍ بمعنى بَعُدَ.

(٣) راجع: الواقدي، المغازي، ج٢، ص٢٣٧.

(٤) م.ن.

بمـرور الأيّام ملجأً يأوي إليـه اليهود المُبعدون عن المدينة، ينتظرون الفرصـة للانتقام من الإسلام، واسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جرّدهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم منها.

وقـد اتضـح هذا في الأيّـام القليلة التي أعقبت هزيمة بنـي قُريظة، إذ بلغت خيـبر أنباء هزيمة بني قُريظـة فاتّصل بعض اليهود بزعيمهـم "سلام بن مشكم" وسألوه الرأي فأجابهم: نسير إلى محمّد بمـا معنا من يهود خيبر فلهم عدد، ونستجلب يهود تيمـاء وفدك ووادي القرى، ولا نستعين بأحد من العرب، قد رأيتم في غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب.. ثمّ نسير إليه في عقر داره، فقالت اليهود: هـذا الـرأي[٥]. وها هم يُحرِّضـون غطفان وغيرهـا ويعدونهم أن يمنحوهم ثمر خيـبر لسنة إن هم تحالفوا معهم ضد الإسلام والمسلمين.

لهذه الأسباب وغيرها عقد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العزم على غزوهم في حصونهم ومعاقلهم المنيعة في خيبر، وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة، فجمع صلى الله عليه وآله وسلم جيشه وتكتّم على مسيره، وخرج من المدينة في ألف وستمائة مقاتل من المسلمين، وأعطى رايته لعليّ عليه السلام، وسلك طُرقاً تحفظ سرِّيَّة تَحرُّكِه، فلم يشعر اليهود إلّا وجيش المسلمين قد نزل بساحتهم ليلاً. وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد وعده الله بالنصر وأن يردّه إلى المدينة فاتحاً غانماً.

وحـين فوجئوا بقوّات المسلمين، تشـاوروا فيما بينهم واتفقوا على القتـال فأدخلوا نساءهم وأولادهم وأموآلهـم في بعض الحصون، وأدخلوا ذخائرهـم في حصون أُخرى، بينما دخـل المقاتلون منهم في حصـن عُـرف بحصن النطـاة أو حصن القموص، والتقـى الجمعان حول هذا الحصـن، ودار قتال شديد بينهما حتّى جُرح عدد كبير من المسلمين.

فتح الحصن على يد الإمام علي عليه السلام:

وكان الهجـوم على الحصن قد بدأ بإرسال النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم سَرِيَّة من المسلمين بقيادة أبي بكر، غير أنّه لم يستطـع أن يفتح ثغرة في تحصينات العدوّ، بل عـاد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهزماً، ثمّ أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمـر بن الخطّاب لمعاودة الكرّة، فرجع منهزمـاً يُجبِّن أصحابه ويُجبِّنونه، فلمّا رأى رسول

(٥) م.س. المغازي، ج٢، ص٥٣٠ ـ ٥٣١.

اللّه صلى الله عليه وآله ذلـك قال: «لأُعطينَّ الراية غداً رجلاً يُحبُّ اللّهَ ورسولَه ويُحبُّه اللّهُ ورسولُه، يفتح اللّه على يديـه، كرّاراً غير فرّار»[1]، فدعا رسول اللّه صلى الله عليه وآله الإمـام عليّاً عليه السلام، وهو أرمد، فتفل في عينيه، ثمّ قال: «خذ هذه الراية، فامض بها حتّى يفتح اللّه عليك».

فخـرج الإمام عليّ عليه السلام ومعـه المقاتلون المسلمون فدار قتال بينهم وبين اليهود على أبواب الحصن، وقتـل الإمام عليّ عليه السلام «مرحباً» وهو من أبطال اليهود وصناديدهم بعدما كان قد قَتل أخاه الحارث وأكـثر مـن ستّة من فرسـان اليهود على بـاب الحصن، فاستولى الخـوف على اليهـود والتجأوا إلى الحصـن وأغلقوا بابه، وكان من أمنع الحصون وأشدّها وقد حفروا حوله خندقاً يتعذّر على المسلمين اجتيازه، فاقتلع الإمام عليّ عليه السلام باب الحصن، وجعله جسراً فعبر عليه المسلمون، واستبسلوا بقيادة الإمـام علـيّ عليه السلام فهاجموا بقيّة الحصـون وتغلّبوا على مـن فيها حتّى انتهـوا إلى حصني الوطيح والسلالم، وكانا آخر حصونهم المنيعة وفيهما النساء والذراري والأموال.

ولـمّـا شعر اليهود بأنّــه أُسقط ما في أيديهم، وأنّ المسلمين سيأسرونهـم ويقتلونهم إن هم أصرّوا على موقفهم، استسلموا وطلبوا العفو من النبيّ صلى الله عليه وآله فأجابهم النبيّ صلى الله عليه وآله إلى ذلك بعد أن غنم أموالهم، وتمّ الاتفـاق بينهـم وبين النبـيّ صلى الله عليه وآله على أن تبقـى الأرض في أيديهم يعملون فيهـا بنصف الناتج والنصف الآخر للمسلمين.

وبعـد فتـح خيبر رجع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «واللّه ما أدري بأيِّهما أنا أشدُّ سروراً: بقدوم جعفر، أو بفتح خيبر؟»[2].

<u>إنّ انتصار المسلمين الساحق في خيبر يعود إلى العوامل التالية:</u>

١. التخطيط العسكريّ والتكتيك الحربيّ الدقيق.
٢. تحصيل المعلومات الدقيقة عن تمركز العدوّ داخل الحصون.
٣. تفـاني الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام وشجاعته وبطولتـه النادرة، والتسديد الإلهيّ الذي مكّنَه من قتل أبطال اليهود وفرسانهم، وقلع باب خيبر وفتح الحصن على يديه[3].

(١) ٨-انظر، تاريخ الطبري، ج٢، ص٣٠٠.

(٢) ٩- الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج٨، ص٥٠.

(٣) ١٠- راجع عوامل الانتصار في كتاب سيد المرسلين، ج٢، ص٤٠٥-٤٠٨.

٥. يهود فدك

لمّا سمع يهود فدك ـ القرية اليهوديّة المجاورة لخيبر ـ بما حلَّ برفاقهم في خيبر بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يُعلنون رغبتهم في المصالحة على مناصفة أراضيهم، فوافق صلى الله عليه وآله على ذلك وصالحهم على نصف ناتج الأرض، فكانت خيبر مُلكاً للمسلمين لأنّهم استولوا عليها بالحرب، وفدك للنبيّ صلى الله عليه وآله خاصّة لأنّه تملَّكها بالصلح، وقد وهبها النبيّ صلى الله عليه وآله للسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام في حياته، وسلّمها إيّاها وجعلت عُمّالها فيها، وصارت هي المُشرِفة على أعمالها وعلى ناتجها. وكانت تصرف ناتجها على فقراء بني هاشم وحسبما تشاء.

فقد جاء في الدرّ المنثور للسيوطيّ عن أبي سعيد الخدريّ أنّه قال: لمّا نزلت الآية ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ**﴾[٤] دعا رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام وأعطاها فدكاً، كما روى ذلك جماعة عن ابن عبّاس[٥].

وجاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد عن أبي سعيد الخدريّ: أنّه صلى الله عليه وآله وهبها لفاطمة عليها السلام، ولمّا انتهت الخلافة لأبي بكر كان أوّل ما قام به أن انتزعها من يدها، بحجّة أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله على حدّ زعمه قال: نحن معاشر الأنبياء لا نُورِّث ما تركناه صدقة، وأصرّ على انتزاعها من يدها بالرغم من أنّها طالبت بها وأقامت البيّنة على مُلكيّتها لها.

٦. يهود وادي القرى وتيماء

أمّا وادي القرى التي كان أهلها من اليهود الحربيّين الذين تآمروا على الإسلام والمسلمين، فقد توجّه إليها النبيّ صلى الله عليه وآله وفرض الحصار عليها، ودعا أهلها إلى الإسلام، وأخبرهم أنّهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله، ولكنّهم أبَوا وأصرّوا على القتال، وجرت بين الطرفين مناوشات محدودة، والنبيّ صلى الله عليه وآله يعرض عليهم الإسلام وهم يأبون، ما دفعه إلى تشديد الحصار عليهم حيث تمكّن من فتح بلدهم عنوة، وبقي هناك أربعة أيّام قسّم خلالها الغنائم على أصحابه، وترك المزارع بيد اليهود مناصفة عليها.

ولمّا بلغت يهود تيماء أنباء الانتصارات الإسلاميّة، صالحوا الرسول صلى الله عليه وآله على الجزية وأقاموا في

---

(٤) الإسراء:٢٦.

(٥) انظر، فضائل الخمسة، ج٣، ص١٣٦.

بلدهم[1].

وبسقوط خيبر والمواقع المجاورة تمّ تصفية آخر تجمُّع يهوديّ لعب دوره في مواجهة الإسلام ووضع العوائق في طريقه، وحبك المؤامرات ضدّه، وقُضي قضاءً تامّاً على القوّة السياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة ليهود الحجاز، وغدت كلمة الإسلام وحدها هي العُليا في معظم مساحات الجزيرة العربيّة.

خلاصة الدرس

١. واصل النبيّ صلى الله عليه وآله حروبه ضدّ اليهود واستطاع الانتصار عليهم في غزوة بني قُريظة، وفي معركة خيبر، وفي فدك وغير ذلك.

٢. اختار بنو قُريظة حُكم سعد بن معاذ، ففوجئوا بحكمه القاضي بسبي نسائهم وذراريهم ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم، وتبنّى النبيّ صلى الله عليه وآله هذا الرأي.

٣. توّج النبيّ صلى الله عليه وآله انتصاراته على اليهود في معركة خيبر، فبعد حصارهم الطويل أرسل النبيّ صلى الله عليه وآله عدداً من أصحابه لفتح ثغرة في تحصيناتهم فلم يوفّقوا، فأعطى الراية للإمام عليّ عليه السلام الذي كتب الله تعالى النصر على يديه، وقتل زعيمهم "مرحباً" وهو من أبطال اليهود.

٤. استكمل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله عمليّة القضاء على اليهود باستيلائه على قرية فدك اليهوديّة، التي صالحوا الرسول صلى الله عليه وآله عليها، وبحصاره لهم في وادي القرى وتيماء حيث استسلموا ورضخوا فيما بعد.

للمطالعة

نماذج من آداب معاشرته صلى الله عليه وآله للناس

امتاز رسول الله صلى الله عليه وآله بخُلقٍ انسانيّ رفيع وسلوك اجتماعيّ مميّز مع الناس، على اختلاف شرائحهم وانتماءاتهم، ما جعله يمتلك عقول وقلوب الناس ويكسب محبّتهم ويجذبهم إلى طريق الله.

ونستعرض نماذج من خُلُقِه الاجتماعيّ وآداب معاشرته للناس، حسبما ورد في الأحاديث عن أهل البيت؛ الذين هم أعرف الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلوكه الفرديّ والاجتماعيّ:

(١) راجع، المغازي للواقدي، ج٢، ص٧٠٩ ـ ٧١١، والفتوح للبلاذري، ج١، ص٣٩ ـ ٤٠، والتنبيه والاشراف للمسعودي، ص٢٢٤ ـ ٢٢٥.

– كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طَلِقَ الوجه دائم البِشر، يواجه الناس بالابتسامة، ويُحسن لقاءهم، ويعاملهم بالرفق واللين والرحمة، ولم يكن يبدو على وجهه العبوس أو الحزن أو الانقباض، بل كان بشوشاً ويُخفي أحزانه وآلامه.

فقد روى الإمام الحسن عليه السلام، عن أبيه عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دائم البِشر، سهل الخُلُق، ليّن الجانب، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب ـ من الصخب وهو شدّة الصوت ـ ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مدّاح»[٢].

وكان يُخاطب قومه ويقول: «يا بني عبد المطّلب إنّكم لن تَسعُوا الناس بأموالكم، فالقوهم بطلاقة الوجه وحُسن البِشر» [٣].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام إذا وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كان أجود الناس كفّاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمّة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عِشرة، ومن رآه بديهة لأوّل مرة هابه، ومن خالطه معرفة أحبّه، لم أرَ مثله قبله ولا بعده»[٤].

– وكان صلى الله عليه وآله وسلم شديد المدارة للناس وأرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس، حتّى لقد روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «أمرني ربّي بمداراة الناس كما أمرني بالفرائض» [٥].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «أعقل الناس أشدّهم مداراة للناس، وأذلّ الناس من أهان الناس»[٦].

– وكان صلى الله عليه وآله وسلم أبعد الناس عن التعالي على مجتمعه أو تمييز نفسه عن أفراده، فقد كان يعيش مع الناس كواحد منهم لا يختلف عنهم في شيء، ويكره أن يتميّز عنهم، ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يجلس بين ظهراني أصحابه، فيأتي الغريب ولا يدري أيّهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى يسأل عنه.

– وكان صلى الله عليه وآله وسلم يتفقّد أحوال الناس، ويسأل الناس عمّا في الناس، ليطّلع على أوضاعهم.

بل لقد روي أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيّام سأل عنه: فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده.

ومن مصاديق رِفْقِه بالأُمَّة، ومعاملته لها بالحسنى: ما رواه يونس الشيباني قال: قال أبو عبد الله ـ

(٢) الطباطبائي، سنن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ص ١٠٤.

(٣) الكليني، الكافي، ج٢، ص١٠٣.

(٤) سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ص١١٢.

(٥) الكليني، الكافي، ج٢، ص١١٧.

(٦) الشهيد الأوّل، الأربعون حديثاً، ص ٥٦.

الصادق ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كيف مداعبة بعضكم بعضاً؟

قلت: قليل.

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فلا[1] تفعلوا فإنّ المداعبة من حسن الخلق، وإنّك لتُدخِل بها السرور على أخيك، ولقد كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُداعِب الرجل يُريد أن يسرّه»[2].

وعن الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليُسرّ الرجل من أصحابه إذا رآه مغموماً بالمداعبة»[3].

- وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُفشي السلام بين الناس، فيُسلِّم حتّى على الصغير منهم.

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم، ويُكنّي من لم يكن له كنية، فكان يُدعى بما كنّاه، ويكنّي أيضاً النساء اللاتي لهنّ أولاد، واللاتي لم يلدن، ويكنّي الصبيان فيستلين به قلوبهم.

- وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لا يأتيه أحد حرّ أو عبد أو أمَة إلّا قام معه في حاجته.

وعن الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما فاوضه أحدٌ قطّ في حاجة أو حديث فانصرف حتّى يكون الرجل هو الذي ينصرف، وما نازعه الحديث أحد حتّى يكون هو الذي يسكت»[4].

- وكان يُكرم من يدخل عليه حتّى ربما بسط له ثوبه، ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته.

- وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لا يذمّ أحداً، ولا يُعيّر أحداً، ولا يُكلِّم أحداً بشيء يكرهه، بل كان شديد الحياء حتّى لقد ورد أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان إذا أراد لوم أحد أو عتابه، يُعاتبه بكلّ حياء وخجل.

- ورُوي أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان لا يدع أحداً يمشي معه إذا كان راكباً حتّى يحمله معه، فإن أبى قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «تقدّم أمامي وأدركني في المكان الذي تُريد»[5].

---

(١) وفي حديث آخر هلّا تفعلوا.

(٢) الكليني، الكافي، ج٢، ص٦٦٣.

(٣) الطبطبائي، سنن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ص١٢٨.

(٤) م.ن.، ص ١١٩.

(٥) م.ن، ص١٢٢.

١٩

الدرس التاسع عشر

المواجهة بين الإسلام والجبهة البيزنطيّة النصرانيّة.

الدرس التاسع عشر

المواجهة بين الإسلام والجبهة البيزنطيّة ـ النصرانيّة

أهداف الدرس:

١. أن يُلاحظ الطالب طبيعة المواجهة بين الإسلام والجبهة البيزنطيّة.

٢. أن يتأسّى بالصحابة المؤمنين الذين تجلّت تضحياتهم في معركة مؤتة.

٣. أن يطّلع إلى أحداث غزوة تبوك، ومحاولة اغتيال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

٤. أن يستفيد من نتائج ودروس معركة تبوك على الصعيدين التربويّ والعسكريّ.

تمهيد

موقف النصارى من الدعوة الإسلامية

لقد وقف النصارى بالإجمال من الدعوة الإسلاميّة منذ البدء موقف العطف والتأييد أحياناً. وظلُّوا كذلك إلى آخر العهد المكّي، ولم يقع بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم احتكاك وعداء كما وقع مع اليهود في المدينة[1].

لكنّ هذا لم يمنع الكثرة من النصارى العرب من أن تلعب دورها في العصر المدنيّ بمواجهة الإسلام، وتتّخذ المواقف العدائيّة ضدّه، على شتّى المستويات بدفعٍ من الدولة البيزنطيّة الرومانيّة.

ففي العصر المدنيّ تمكّن الإسلام من بناء دولته - التي تتجاوز في سياساتها وعلاقاتها الحدود الاقليميّة والقوميّة - التي وصلت إلى حدود الدولة البيزنطيّة وحلفائها العرب في الشمال، وهم جميعاً محسوبون على المعسكر النصرانيّ.

وبمرور الوقت واتساع نفوذ الإسلام شمالاً، ووصول أنباء انتصاراته على الوثنيّة واليهوديّة إلى قبائل الشمال.. بدأ المعسكر البيزنطيّ وحلفاؤه يشعر بالخوف والخطر ويقوم ببعض التصرُّفات المُعادية

---

(١) روي أنّ قيصر الروم كان يميل إلى اعتناق الإسلام بعد المعلومات التي توفّرت لديه عن نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. ولمّا أعلن عن هذه الرغبة واجه معارضة حادّة من الأهالي وكانوا على الدين المسيحيّ ومن جيش الروم، فتراجع عمّا كان قد عزم عليه. وهذا الموقف يُشير إلى أنّ أمراء الروم وقادتهم الآخرين لهم مواقف مناهضة للإسلام.

للإســلام والمسلمين، فبدأ مسلسل الصراع المُسلَّح بين المسلمين والنصارى. وكانت أبرز المعارك على هذا الصعيد: معركة مؤتة ومعركة تبوك.

معركة مؤتة

كان الدافع لهذه المعركة هو الانتقام لحادثة مقتل الحارث بن عمير الأزديّ مبعوث الرسول ﷺ إلى ملـك بُصـرى على يد شرحبيل بن عمـرو الغسّانيّ عامل هِرَقْل في مؤتة. فقـد كان لهذه الحادثة وقع شديد على المسلمين، وكان لا بُدَّ للنبيّ ﷺ من أن يتّخذ موقفاً حاسماً إزاء المعتدي بعد هذا الموقف الغادر.

فجهّـز النبــيّ ﷺ جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة جعفر بــن أبي طالب رضوان الله عليه، وكان ذلــك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجــرة، وأمرهم بالانطلاق صوب الشمال، لتأديب القوى المعاديــة على فعلتها، وإشعارهــا بقوّة الدولة الإسلاميّة وقدرتها علــى ردع الغادرين والمعتدين الذين يجدون في الحماية البيزنطيّة سبباً يدفعهم إلى الجرأة والعدوان.

وتُشـير الشواهــد الصحيحة إلى أنّــه ﷺ جعل القيادة لجعفــر بن أبي طالب، ومــن بعده لزيد بن حارثــة، ومن بعدهما لعبد الله بن رواحة، وترك للجيش أن يختار لقيادته من يراه صالحاً إذا أُصيب الثلاثة.

أعــدَّ هرقل بعدما سمع نبأ التحرُّك الإسلاميّ جيشــاً كثيفاً قوامه مئة ألف مقاتل وعسكر في "مآب" من أرض البلقاء.

ولمّا وصل المسلمون إلى منطقة معان جنوبيّ الأردن بَلَغَتْهُم أخبار تلك الحشود.. فأقاموا ليلتين يتداولون الــرأي بينهم وقال بعضهم: نكتب إلى رســول الله ﷺ فنُخبِره بعدد عدوّنا، فإمّا أن يمدّنا بالرجال وإمّــا أن يأمرنــا بأمره فنمضي له، وكاد هذا الرأي أن يتغلّــب لولا التربية الإيمانيّة والمعنويّة التي كان لهــا دورهــا في صنع القرار وتحديد الموقف في اللحظات الحرجة، حيث وقف عبد الله بن رواحة وقال بكلّ إيمان وقوّة وشجاعة: "يا قوم، والله.. ما نقاتل الناس بعدد ولا قوّة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنّما هي إحدى الحسنيين: إمّا ظهور وإمّا شهادة"[٢].

فـكان لهذه الكلمــات أثرها الطيّب على تلك النفوس المؤمنة المجاهــدة، فصمّموا على المُضي والقتال مهما كانت النتائج.

---

(٢) للتفصيل، راجع بحار الأنوار، ج ٢١، ص٥٠ـ ٦٣.

غـادر المسلمون معسكرهم في "مَعان" وانطلقوا شمـالاً حتّى إذا بلغوا تخوم "البلقاء" لَقِيَتْهُم جموع الـروم وحلفاؤهـم العرب في قرية تُدعى مؤتـة، وهناك دارت معركة طاحنة بـين الطرفين، استُشهد خلالها القادة الثلاثة على التوالي، فقرّر خالد بن الوليد الذي تولّى قيادة الجيش الانسحاب والعودة إلى المدينة.

غزوة تبوك[1]

بعد عودة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إلى المدينة المنوّرة في أواخر السنة الثامنة للهجرة، في أعقاب دخول مكّـة وانتصاره في حُنين، بلغتـه أنباء خطيرة عن تحرُّكات عسكريّة خطـيرة يعتزم الروم وحلفاؤهم العـرب، مـن لخم وجذام وغسان، القيام بهـا ضدّ الإسلام والمسلمين. وقد قامـت هذه القبائل فعلاً بإرسال طلائعها إلى البلقاء، فقرّر النبيّ صلى الله عليه وآله أن يتصدّى لهم.

وفي معظـم الغـزوات كان النبيّ صلى الله عليه وآله لا يُحدِّد هدفه العسكريّ زيادة في الكتمان والسرِّيَّة، بل إنّه كان يُعلـن عن أهداف غير تلـك التي يقصدها لتضليل الأعداء، أمّا في غـزوة تبوك فقد بيَّن النبيّ صلى الله عليه وآله الهدف للناس؛ "لِبُعد الشقّة وكثرة العدو، ليتأهّب الناس لذلك أهبَّته".

فأرسـل إلى القبائـل المُسلِمـة في مختلـف المناطق يُعلِمهم بما عـزم عليه ويستنهضهـم للجهاد معه، فأجابوا دعوته إلّا المنافقين، فإنّهم راحوا يختلقون الأعذار الواهية حتّى لا يخرجوا لقتال الروم. وقد حكـى القرآن عنهم ذلك فقـال تعالى: ﴿**وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَـرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَـدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ**﴾[2]

ثـمّ تمـادى المنافقـون في موقفهم، فلم يكتفـوا بتخلُّفهم عن الجهـاد، بل راحوا يُثبِّطـون النـاس عنه ويُحرِّضـون علـى التخلُّف والتخاذل، وقد اجتمعوا لهذه الغاية في بيـت أحد اليهود، فعلم النبيّ صلى الله عليه وآله بهم، فحرق عليهم الدار وكانوا عبرةً لغيرهم.

استكمـل النبيّ صلى الله عليه وآله تجهيز المسلمـين وولّى الإمام عليّاً عليه السلام إدارة المدينة، وقال له: «أما ترضى أن تكـون منّـي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّـه لا نبيّ بعدي؟»[3] . ثمّ ما لبـث أن انطلق صلى الله عليه وآله في رجب من السنة التاسعة بأكبر جيش عرفه تاريخ الدعوة إلى ذلك الحين، قيل إنّه بلغ ثلاثين ألفاً، تصحبه

(١) حصلت غزوة تبوك في رجب سنة ٩ من الهجرة.

(٢) التوبة: ٨١.

(٣) وقال النبيّ صلى الله عليه وآله أيضاً في هذا الموقف: "يا عليّ إنّ المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك"، المفيد، الإرشاد: ج١، ص١١٥.

عشرة آلاف فرس.

بـدأ المسلمـون مسيرتهـم التي قطعـوا فيها آلاف الأميـال، وعانـوا آلام العطش والجـوع والحرّ وقلّة وسائـل الركـوب وبُعد الطريق.. حتّى انتهى بهم المطاف إلى تبوك في أقصى الشمال. ويبدو أنّ الروم وحلفاءهـم سمعوا بأنباء هـذا الجيش الكبير، وقدرتـه على اجتياز المصاعب، وإصـراره على جهاد الأعـداء، وقدّروا أنّه لو انتصر في هذه المعركة فسوف لا يقف عند حدّ، وبالتالي قد تتعرّض مواقعهم للخطـر، فآثروا الانسحاب إلى الداخل، عبر أراضـي الأردن وفلسطين، وربما كانوا يهدفون من ذلك - في الوقـت نفسـه - إلى جرِّ المسلمين إلى الداخل والانقضاض عليهم هناك. إلّا أنّ النبيّ ﷺ لم يُتِحْ لهـم تحقيق هدفهم هذا، وقرّر عدم التوغُّل إلى الداخل، وعسكر في تبوك جاعلاً إيّاها آخر نقطة في توغُّله شمالاً.

بقـي النبيّ ﷺ في تبوك حوالي عشرين يوماً يُراقب تحـرُّكات الروم من دون أن يُقاتل أحداً. وأخذ يتّصـل في الوقت نفسه بزعمـاء القبائل النصرانيّة المنتشرة في المنطقـة المُتاخِمة للحدود، وعقد مع بعضهم معاهدات صلح وتعاون، فقطع بذلك ولاءهم للدولة البيزنطيّة وحوّلهم إلى مواطنين أو حلفاء للدولة الإسلاميّة، وهو الهدف الذي كان يسعى إلى تحقيقه منذ بدء صراعه مع الروم.

محاولة اغتيال النبيّ ﷺ

مـن الأحداث المُهمَّة التـي وقعت مع النبيّ ﷺ خلال عودته من تبـوك محاولة اغتياله، فقد ذكرت المصـادر التاريخيّة أنّه حين وصل الجيش الإسلامـيّ إلى العقبة بين المدينة والشام قال ﷺ: "من شـاء منكـم أن يأخذ بطن الوادي فإنّه أوسع لكم" فأخذ الناس بطن الوادي وسلك هو طريق العقبة، وكان يقود ناقته عمّار بن ياسر ويسوقها حذيفة بن اليمان، فرأى النبيّ ﷺ في ضوء القمر فرساناً قـد تلثّمـوا ولحقوا بـه من ورائه في حركـةٍ مُريبة فغضب ﷺ وصـاح بهم وأمر حذيفـة أن يضرب وجـوه رواحلهم؛ فتملّكهم الرعب وعرفوا بأنّ النبيّ ﷺ قد علـم بما أضمرته نفوسهم بمؤامرتهم، فأسرعوا تاركين العقبة ليُخالِطوا الناس ولا تنكشف هويّتهم.

وطلـب حذيفة من الرسـول ﷺ أن يبعث إليهم من يقتلهم بعدما عرفهم من رواحلهم، ولكنّ رسول الرحمة عفا عنهم وأوكل أمرهم إلى الله تعالى[٤].

---

(٤) المجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٢١، ص٢٤٧.

نتائج تبوك وملامح الانتصار:

بعـد عشريـن ليلة قضاها النبـيّ ﷺ وقوّاته في تبوك، قفل عائداً إلى المدينـة بعد أن حقّق بحركته الصعبة تلك انتصاراً على الجبهة النصرانيّة البيزنطيّة، لا يقلّ أهميّة عن انتصاراته الحاسمة على جبهات الوثنيّة واليهوديّة، وهذه أبرز ملامح الانتصار:

١. فقـد كسب النبيّ ﷺ عدداً من القبائـل القاطنة في جنوب الشام على الحدود إلى جانب الدولة الإسلاميّـة، وقطـع علاقاتها بالروم، وحصل منها على عهد بأنْ لا تتعاون مع أحد عليه، ولا تتّخذ من بلدانها مركزاً للعدوان على الحجاز، وبذلك ضمن النبيّ ﷺ أمن المسلمين وحدود دولتهم.

٢. والانتصـار الأهـمّ هـو أنّ استجابة الرسـول ﷺ لتحدّي الـروم، وتقدّمه لقتالهـم وانسحابهم مـن طريقـه وانتظاره إيّاهم قرابة عشرين يومـاً دون أن يُحرِّكوا ساكناً، جـاء ضربة قاسية للسيادة البيزنطيّـة في بلاد الشـام، وإضعافاً لمركزها وهيمنتها على القبائل التي تعيش هناك، وكسراً لجدار الخـوف مـن القوّة البيزنطيّة، وهـو انتصار نفسيّ حاسـم مكّن أهالي البلاد، بعـد سنين قليلة، من تجـاوز ولائهم القديم والانطلاق لضرب البيزنطيّين وإلحاق الهزائم بهم وطردهم إلى بلادهم التي جاؤوا منها.

٣. صعود سُمعة المسلمين ومكانتهم وهيبتهم داخل الحجاز وخارجها؛ بحيث إنّ القبائل - التي شعرت بمدى قوّة الدولة الجديدة وامتداد نفوذها حتّى إلى قلب الديار التي كان أهلها يعملون لصالح الروم - بـادرت إلى حسـم خيارها وأخذت تتهافت علـى الرسول في المدينة بعد رجوعـه من تبوك خاضعة مذعنة معلنة إسلامها وتأييدها، حتّى سُمّي ذلك العام التاسع بعام الوفود.

٤. إنّ غـزوة تبوك تُمثّـل خطوة من خطوات حركـة المسلمين باتجاه الخارج، وتخطّيـاً لنطاق العرب وجزيرتهـم إلى العـالم، وبـادرة مُتقدِّمة مهّدت الطريق لحركـة الفتوحات الإسلاميّـة التي شهدتها العصور التالية لعصر النبيّ ﷺ.

مواقف ودروس من غزوة تبوك:

١. ميّــزت غــزوة تبوك مــرّة أخرى المُنتمــين إلى معسكر الإســلام، فكشفت المنافقين الذيــن تَخلّفوا عــن الجهاد لأعــذار واهية ومحّصتهم عن المؤمنين المجاهدين الذيــن سارعوا للانخراط في الجيش الإسلاميّ رغبة في الجهاد وعشقاً للشهادة.

وقد ذكر المفسِّرون أنّ عدداً من آيات سورة التوبة[1] نزلت بمناسبة تبوك، مقَارِنَةً بين موقف المنافقين وموقف المؤمنين من الجهاد، وفاضحةً المنافقين وأساليبهم، مُحذِّرةً من مكرهم ومؤامراتهم، مشدِّدةً على عدم التساهل معهم أو الاستعانة بهم أو قبول أعذارهم.

٢. في الوقــت الذي تخلّف فيــه بعضٌ عن الجهاد في تبوك، مُلتمسين الأعــذار الواهية، كان بعضٌ من الفقــراء المجاهدين تفيض أعينهم من الدمع لأنّهــم لم يتمكّنوا من الخروج إلى الجهاد، بسبب عدم امتلاكهم لمؤونته وإمكاناته.

وقد ورد أنّ سبعة من فقراء المسلمين جاؤوا إلى النبيّ ﷺ وتوسّلوا إليه أن يُهيّىء لهم ما يُمكِّنهم من الخــروج معــه شوقاً إلى الجهاد في سبيل الله، فأجابهم: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولّوا عنه وأعينهم تفيض من الدمع حزناً وأسفاً لحرمانهم من شرف المشاركة، وأنزل الله بهذه المناسبة قوله تعالى:

﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ❖ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[2].

٣. شــارك المسلمــون الأغنياء في تجهيــز الجيش الإسلاميّ والإنفاق عليه حتّــى "أنّ الرجل كان يأتي بالبعــير إلى الرجــل والرجلين فيقــول: هذا البعير بينكمــا تتعاقبانه، ويأتي الرجــل بالنفقة فيُعطيها بعض من يخرج"، بل ورد أيضاً أنّ النساء ساهمنَ بحليّهنَّ في تبوك وشاركنَ الرجال في النفقة، حيث اشتركنَ بكلّ ما قدرنَ عليه من مسك، وأسورة ومعاضد، وخلاخيل، وقراط، وخواتيم"[3].

(١) راجع التوبة: ٨١-٩٦.

(٢) التوبة: ٩١-٩٢.

(٣) راجع، الواقدي، المغازي، ج٣، ص٩٩١.

٤. إنّ اختيار الإمام عليّ عليه السلام بالذات ليكون مكان النبيّ صلى الله عليه وآله في المدينة يُدير شؤونها في غيابه، كان إجراءاً ضروريّاً يستهدف حماية المدينة وحفظ كيانها من المنافقين والأعراب الذين تخلّفوا عن تبوك بأعداد كبيرة، وكان من المُحتمل أن يستفيدوا من فرصة غياب النبيّ صلى الله عليه وآله للانقضاض على المدينة والعبث بأمنها، فكانت الدولة بحاجة إلى شخصيّة مرهوبة الجانب تملك كفاءة القيادة والولاية، ولا تحسب لأحد حساباً مهما بلغ من القوّة والمكانة، وتقف سدّاً منيعاً في وجه كلّ من يُحاول التآمر أو العبث بأمن الدولة وكيانها، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يعلم بأنّه لا يصلح لمهمّة كهذه غير الإمام عليّ عليه السلام، وقد قال له النبيّ صلى الله عليه وآله على ما جاء في مستدرك الصحيحين: «إنّ المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك» [1].

خلاصة الدرس

- لم تكن عداوة النصارى للمسلمين كعداوة اليهود، إلّا بدفع من الدولة البيزنطيّة الرومانيّة، بعد شعورهم بالخوف والخطر، نتيجة للانتصارات التي حقّقها الإسلام، فكانت أبرز المعارك: مؤتة وتبوك.
- وكان الدافع لمعركة مؤتة الانتقام لمقتل مبعوث الرسول صلى الله عليه وآله إلى عامل هرقل، حيث أرسل صلى الله عليه وآله سريّة وجعل القيادة فيها لجعفر بن أبي طالب، وكان حشد النصارى كثيفاً مقارنة بالمسلمين، ولكنّهم صمّموا على القتال حتّى استشهد القادة الذين عيّنهم النبيّ صلى الله عليه وآله، فأمر خالد بن الوليد بالانسحاب.
- ثمّ بعد أن بلغ النبيّ صلى الله عليه وآله أنباء عن تحرّكات خطيرة للجبهة البيزنطيّة، قرّر صلى الله عليه وآله التصدّي لها واستنهض كلّ القبائل المسلمة، إلّا أنّ المنافقين قاموا بتثبيط الناس، فعاقبهم النبي صلى الله عليه وآله، ثمّ ولّى عليّا عليه السلام على المدينة، وخرج مع المسلمين، ولمّا وصل إلى تبوك واستقرّ فيها، آثر الروم الانسحاب بدل المواجهة، وبعد عودة النبيّ صلى الله عليه وآله من تبوك تعرّض لمحاولة اغتيال في العقبة باءت بالفشل، نتيجة علم النبيّ صلى الله عليه وآله وانفضاح المتآمرين.
- وقد شكّلت تبوك انتصارًا على الجبهة البيزنطيّة وكان له نتائج عدّة أبرزها:
- كسب عدد من قبائل جنوب الشام، كسر جدار الخوف من الروم، صعود سمعة المسلمين ومكانتهم، تمهيد الطريق للفتوحات الإسلاميّة، تمايز المجاهدين عن المنافقين، مشاركة المسلمين الأغنياء في تجهيز الجيش الإسلاميّ واختيار الإمام عليّ عليه السلام كخليفة عن النبيّ صلى الله عليه وآله في المدينة.

(١) راجع، الحاكم النيسابوري، المستدرك، ج٢، ص٣٣٧.

للمطالعة

صفة مجلس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

عن الإمام الحسين عليه السلام قال: سألت أبي عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يجلس ولا يقوم إلّا على ذكر الله جلّ اسمه، ولا يوطن الأماكن، وينهى عن إيطانها -أي لا يتّخذ لنفسه مجلساً خاصّاً يتميّز به-، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يُعطي كُلّاً من جلسائه نصيبه، حتّى لا يحسب جليسه أنّ أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه في حاجة، صابره حتّى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يردّه إلّا بها أو ميسورٍ من القول، قد وسع الناس منه بسطه وخلقه، فكان لهم أباً، وصاروا عنده في الحقّ سواء»[٢].

مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، ولا تُرفع فيه الأصوات، ولا يُوهن فيه الحُرَم، ولا تُثنى فلتاته أي لا تظهر هفواته، متعادلون متفاضلون فيه بالتقوى، متواضعون، يوقّرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب..

سيرة النبي مع جلسائه

وأمّا سيرته مع جلسائه، فيقول الحسين عليه السلام نقلاً عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دائم البشْر، سهل الخُلُق، ليّن الجانب، ليس بفظّ، ولا غليظ، ولا صخّاب - من الصخب وهو شدة الصوت- ولا فحّاش ولا عيّاب ولا مدّاح، يتغافل عمّا لا يشتهي، فلا يؤيس منه ولا يخيب فيه مؤمليه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، وممّا لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: كان لا يذمّ أحداً ولا يُعيّره، ولا يطلب عورته - عيوبه- ولا يتكلّم إلّا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلّم أطرق جُلساؤه كأنّ على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلّموا، ولا يتنازعون عنده الحديث، متى تكلّم أنصتوا له حتّى يفرغ، حديثهم عنده حديث أوّلهم، يضحك ممّا يضحكون منه، ويتعجّب ممّا يتعجّبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتّى إن كان أصحابه ليستجلبونه، ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يقبل الثناء إلّا عن مكافىء، ولا يقطع على أحد حديثه، حتّى يجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام»[٣].

---

(٢) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص ٢٨٤.

(٣) الأصبهاني، أخلاق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ص ١٧.

آدابه في الحديث

وفي مشاركته صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي كان يدور في المجلس، يقول زيد بن ثابت: كنّا إذا جلسنا إليه صلى الله عليه وآله وسلم، إن أخذنا بحديث في ذكر الآخرة أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الدنيا أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الطعام والشراب أخذ معنا[1].

وفي سموّ أخلاقه مع جلسائه أيضاً، ما أشار اليه الإمام الصادق عليه السلام في حديث له: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُقسِّم لحظاته نظراته بين أصحابه فينظر إلى ذا، وينظر إلى ذا بالسويّة، ولم يبسط يمدّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجليه بين أصحابه، وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده من يده حتّى يكون هو التارك، فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه مال بيده فنزعها من يده»[2].

(١) ١٣-الكليني، الكافي، ج٢ ص ٦٧١.

(٢) ١٤-الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص ١٤.

٢٠

الدرس العشرون

البراءة من المشركين ومواجهة المنافقين ١

الدرس العشرون

البراءة من المشركين ومواجهة المنافقين ١

أهداف الدرس:

١. أن يتعرّف الطالب إلى أسباب البراءة من المشركين.

٢. أن يُعدِّد ما تضمّنته آيات سورة البراءة.

٣. أن يُحيط علماً بواقعة المباهلة مع نصارى نجران.

٤. أن يذكر أساليب المنافقين العدائيّة.

٥. أن يُحدِّد مواقف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من حركة النفاق.

عام الوفود وتصفية الوثنيّين

كان سقوط مكّة بأيدي المسلمين ثمّ هزيمة التحالف الوثنيّ في حُنَيْن، آخِر ضربتين حاسمتين للوجود الوثنيّ في الجزيرة، انهار بعدها جدار الكفر وانطلقت حركة الإسلام بسرعة إلى كلّ مكان. وأدركت القبائل العربيّة أن لا مناص لها من تحديد موقفها من الإسلام ودولته، فراحت تتسابق في إرسال وفودها إلى قاعدة الإسلام - مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم - لمبايعته على الإسلام ومصالحته.

ولكثرة هذه الوفود في العام التالي لفتح مكّة ومطلع الذي يليه، سمّاه المؤرّخون عام الوفود. وكان في طليعة هذه الوفود وفد ثقيف الذي قَدِم المدينة في أعقاب عودة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة تبوك.
وفي غمرة أفراح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بنجاح الإسلام وانتشاره، مرض ولده إبراهيم وتوفّي في نفس العام.

البراءة من المشركين

لم يبقَ في الجزيرة العربيّة قوّة تتمسّك بالشرك والوثنيّة، إلّا أفراد لا يُعتدّ بهم. وانتشرت العقيدة الإسلاميّة السمحاء، وكان لا بدّ من إعلان صريح حازم، يُلغي كلّ مظاهر الشرك والوثنيّة، في مناسك أكبر تجمُّع عباديّ سياسيّ، وحان الوقت المناسب لتُعلِن الدولة الإسلاميّة شعاراتها في كلّ مكان، وتُنهي مرحلة المداراة وتأليف القلوب التي تطلّبتها المرحلة السابقة.

واختار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم "يوم النحر في منى" مكاناً للإعلان، وعيَّن أبا بكر ليقرأ مطلع سورة التوبة [1]، التي تتضمّن إعلان البراءة بصراحة، وفي هذه الآيات النقاط التالية:

١. لا يدخل الجنّة كافر.

٢. لا يطوف في البيت الحرام عُريان إذ كانت تقاليد الجاهليّة تسمح بذلك، ولا يحجّ بعد هذا العام مُشرِك.

٣. من كان بينه وبين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عهد فأجلُه إلى مُدّته، ومن لم يكن له عهد ومُدّة من المشركين فإلى أربعة أشهر، وبعد ذلك سوف يُقتل من وُجِدَ مُشرِكاً.

ونزل الوحي الإلهيّ على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: "إنّه لا يؤدّي عنك إلّا أنت، أو رجل منك".

فاستدعى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الإمام عليّاً عليه السلام وأمره أن يركب ناقته العضباء ويلحق بأبي بكر، ويأخذ منه البلاغ ويؤدّيه للناس [2].

ووقف الإمام عليّ عليه السلام بين جموع الحجيج في العاشر من ذي الحجّة، وهو يتلو البيان الإلهيّ بقوّة وجرأة تتناسق مع حزم القرار ووضوحه، والناس ينصتون إليه بحذر ودقّة.. وكان أثر الإعلان على المشركين أن قَدِمُوا مسلمين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

مباهلة نصارى نجران

في سياق ما كتبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قادة ورؤساء وملوك بلدان العالم، بعث كتاباً إلى أسقف نجران، يدعوه فيه مع المسيحيّين إلى عبادة الله تعالى، فاجتمع زعماء نصارى نجران لبحث الموضوع، وقرّروا أن يبعثوا وفداً إلى المدينة، وعلى رأسه الأُسقف نفسه ليأتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويسألوه عن دلائل نبوّته. استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوفد، وأبدى احترامه لهم وفسح لهم المجال ليُمارسُوا طقوسهم، ثمّ عرض عليهم الإسلام فامتنعوا، وطال النقاش حول كون عيسى عليه السلام من البشر، فخلصوا إلى أن يباهلهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأمر من الله عزّ وجلّ [3] واتفقوا على اليوم اللّاحق موعداً.

(١) وهي الآيات الأولى منها: "بَرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم... فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ..." الآيات: ١ – ٥.

(٢) ذكر هذه الواقعة: الكامل في التاريخ: ج٢/ص٢٩١، تفسير مجمع البيان:ج ٥/ص١٣.

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ... فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ...﴾ سورة آل عمران، الآية: ٥٩.. ٦١.

وهنا وقف أسقفهم وقال لقومه: انظروا إن جاء محمّد غداً بولده وأهل بيته فاحذروا مباهلته، وإن جاء بأصحابه وأتباعه فباهلوه.

وفي اليوم التالي خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المباهلة ومعه الإمام عليّ، والسيّدة فاطمة، وسبطاه الحسن والحسين.

فقال عندها أسقف نجران: يا معشر النصارى إنّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يُزيل جبلاً من مكانه لأزاله... فلا تُباهِلُوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانيّ[1] .

فامتنعوا عن المباهلة، وصالحهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على دفع الجزية ضمن معاهدة وردت تفاصيلها في كتب التفاسير والتاريخ[2].

---

(١) بحار الأنوار. ج٢١، ص٣٣٧، إعلام الورى، الطبرسي، ص ١٢٩.

(٢) راجع: تاريخ اليعقوبي: ج٢، ص٧٢، الميزان في تفسير القرآن:ج٣، ص٢٣٢.

٢١

الدرس الحادي والعشرون

البراءة من المشركين ومواجهة المنافقين ٢

الدرس الحادي والعشرين

البراءة من المشركين ومواجهة المنافقين ٢

حركة النفاق في المدينة

وجد المنافقون أنفسهم بعد الانتصارات الكبرى للنبيّ ﷺ بين خيارين، إمّا أن يبقوا على كفرهم فيُعرِّضوا أنفسهم للعقاب، وإمّا أن ينتموا للدين الجديد. ورأى زعيم المنافقين عبد الله بن أُبَي بن سلول، أنّ خير وسيلة للخروج من هذا المأزق، هو الإعلان عن إسلامهم ظاهراً، والبقاء على اعتقاداتهم باطناً، وبهذا ينجون من العقاب، ويحتفظون بمعطياتهم الجاهليّة. وهذا ما سمح لهم بالقيام بعمليّة تخريب من داخل المجتمع الإسلاميّ ما أوجد قوّة جديدة في مواجهة الإسلام.

أساليب المنافقين العدائيّة:

اتخّذت أساليب المنافقين ومظاهر عدائهم أشكالاً شتّى نذكر منها:

١. مدُّ يد العون لليهود، ومساندتهم فيما كانوا يُحوكونه من مؤامرات على الإسلام، مثل وقوفهم مع بني قينقاع عندما نقضوا العهد مع الرسول ﷺ، ومعاونتهم لبني النضير عند حصار المسلمين لهم، عندما تآمروا على حياة النبيّ ﷺ.

٢. ارتكاب الخيانة بالانسحاب من ميادين الجهاد في اللحظات الحرجة، كما حصل في انسحاب ابن أُبي بثُلث المقاتلين من منتصف الطريق إلى معركة أُحد، وكذلك في غزوة تبوك، وإثارتهم للشائعات التي تُثير الخوف والهزيمة في معركة الخندق حيث أحاطت الأحزاب بالمدينة.

٣. التخريب الداخليّ وإثارة الفتنة بين فئات المسلمين، ونشر الشائعات الهدّامة، ففي غزوة بني المصطلق حاولوا إثارة الحسّ القبليّ بين المهاجرين والأنصار، وكادت أن تقع فتنة بين الطرفين لا يعلم إلا الله مداها لولا حكمة النبيّ ﷺ.

٤. قيامهم بأعمال يُراد منها الإضرار بالمسلمين وتفريق صفوفهم ووحدتهم وتماسكهم، وذلك كبنائهم "مسجد ضرار" الذي تحدّث عنه القرآن الكريم وأطلق عليه هذه التسمية، فَكَشَف بذلك

نيّاتهم وفَضَح خطّتهم [1].

موقف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من حركة النفاق

لم يدخل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في صراع مُسلّح ضدّ المنافقين، كما فعل مع القوى الوثنيّة، واليهوديّة، والنصرانيّة، بالرغم من كلّ ممارساتهم التخريبيّة، وخطرهم الذي لا يقلّ عن خطر غيرهم. والأسباب التي أدّت إلى هذا الموقف من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تتلخّص بما يلي:

١. إنّ المنافقين يمتلكون القدرة على الاندساس في صفوف المسلمين والاستخفاء بينهم، وهذا ما يمنحهم القدرة على إنكار جرائمهم ومكائدهم والتفلُّت ممّا يُدينهم، وبالتالي لا يُمكن للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم معاقبتهم أو حتّى عزلهم.

٢. إنّهم كانوا يتظاهرون بالإسلام، ويُخفون الكفر، وإنّما يُحاسَب الناس بحسب أعمالهم الظاهرة، فكيف يُمكن معاقبتهم والحال هذه، والمعروف عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان لا يتعرّض لمن يُظهِر الإسلام بسوء؟

٣. إنّ ممارسة القتل الجماعيّ أو الفرديّ تجاه أشخاص من أتباع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في الظاهر، محسوبين على مُعسكره، سوف يُعطي لأعدائه في الخارج سلاحاً دِعائياً لمهاجمة الإسلام، وذريعةً لتخويف الناس من الدخول فيه، وهذا ما عبّر عنه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لعمر بن الخطّاب عندما ألحّ عليه بممارسة هذا الأسلوب تجاه المنافقين بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أتريد أن يتحدّث الناس أنّ محمّداً يقتل أصحابه»[2].

٤. إنّ النفاق لا يتّخذ صفة العنف، ويظهر المنافق أمام الناس بأنّه لا يكيد للإسلام. وهنا تبرز الحاجة إلى إعطاء المنافقين الفرصة للتعرُّف أكثر فأكثر إلى تعاليم الإسلام وأهدافه.

٥. إنّ سكوته صلى الله عليه وآله وسلم عن المنافقين، وقَبُولهم كأعضاء في المجتمع الإسلاميّ، إنّما يُريد به المحافظة على من أسلم من أبنائهم، وإخوانهم، وآبائهم، وأقاربهم، حتّى لا تنشأ المشاكل العائليّة الحادّة فيما بينهم.

٦. إنّ اتخاذ أيّ إجراء ضدّ المنافقين معناه فتح جبهة جديدة، كان بالإمكان تجنّبها.

---

(١) ذكر القرآن الكريم هذه الحادثة في قوله تعالى: "الذين إتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً..." سورة التوبة: ١٠٧.

(٢) راجع: مسند أحمد، دار صادربيروت، ج٣، ص٣٥٥ وص ٣٩٣، وصحيح البخاري، ج٦، ص٦٦.

والخلاصة : إنّ مواجهة المنافقين بالعنف والقتل والصراع المُسلَّح لم تكن في مصلحة الإسلام والمسلمين، ولذلك لم يلجأ النبيّ ﷺ إلى هذا الأسلوب وكان بديل هذا الأسلوب شيئاً نادراً في تاريخ الدعوات، فقد تتبّع النبيّ ﷺ خطط المنافقين وتخريبهم بيقظة كاملة.

خلاصة أساليب الرسول ﷺ في مواجهة المنافقين :

ولم يُحدِّد أسلوباً ثابتاً في مجابهة مواقفهم المتلوِّنة، وإنّما راح يضع لكلّ حالة إجراءاً أو خطّة تتناسب تماماً وحجم المحاولة التخريبيّة..

• فنجده ﷺ - مثلاً - أثناء التجهّز لتبوك عندما علم باجتماع المنافقين في بيت أحد اليهود ليُثبِّطوا الناس عن الخروج، يتّخذ إجراءاً فوريّاً بحقّهم فيأمر بحرق الدار عليهم.

• وفي أعقاب تبوك في حادثة مسجد ضرار نجده ﷺ أيضاً يتّخذ إجراءاً عمليّاً ضدّ المنافقين، فيأمر بهدم مسجد ضرار وإحراقه.

• وفي موقفٍ آخر نجده ﷺ يفضحهم ويكشف عن حقيقتهم، وينبّه الصحابة إلى خُططهم ومؤامراتهم، ويُحذِّر الناس منهم.

• وكان هذا بطبيعته يُمثِّل حصانة ومناعة للمسلمين ضدّ النفاق والمنافقين ومكائدهم، وإفشالاً لكلّ مُخطَّطاتهم ومؤامراتهم.

• ومن وراء الرسول ﷺ كانت آيات القرآن الكريم تتنزّل من الله تعالى، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهي تفضح خططهم ومكائدهم الخبيثة قبل أن تقع، مُندِّدة بأساليبهم، مُظهرة أفعالهم، مُبيِّنة أوصافهم بدقّة.

وكلُّ ذلك لم يمنع من قوّة الإسلام ومنعته وانتشاره، وانهيال القبائل العربيّة على المدينة مُعلنين إسلامهم أمام رسول الله ﷺ.

خلاصة الدرس

- كان العـام التاسع الهجريّ عام الوفود، وعام تصفية الوجود الوثنيّ داخل الجزيرة العربيّة، من خـلال الإعلان الرسميّ بالبراءة مـن المشركين، الأمر الذي أدّى بالمسلمـين إلى أن يخرجوا من حدود الجزيرة العربيّة للدعوة إلى الإسلام.
- كانت دعوة القبائل النصرانيّة إلى حظيرة الإسلام، ثمّ دعوتها إلى المباهلة وتراجعها أمام دعوة المباهلة، دليلاً كافياً على عظمة الإسلام، وموجباً لرضوخها للقيادة الإسلاميّة.
- أمـام الانتصارات الباهرة للمسلمين وجـد المنافقون في المدينة أنفسهم أمام خيارين: إمّا البقاء علـى الكفر، وإمّا الانتماء إلى الدين الجديد، فاختاروا الثاني من أجل القيام بعمليّة تخريب من داخل المجتمع الإسلاميّ، ولجأوا إلى أساليب مُتعدِّدة في محاولةٍ منهم للقضاء على الإسلام.
- وقف النبيّ ﷺ تجاه حركة النفاق موقفاً حكيماً، فلم يُقاتلهم، ولم يُشهِر السيف في مواجهتهم، بل عمد إلى فضح مكائدهم، والتشهير بهم أحياناً، فضلاً عن الأسلوب القرآنيّ في تنبيه المسلمين من المنافقين.

للمطالعة

سلوكه ﷺ العسكريّ والأمنيّ

يذكـر المحلِّلـون العسكريّون أنّ رسول الله ﷺ كان قائداً عسكريّاً فـذّاً، وقد أدار المعارك العسكريّة التـي خاضها ضدّ المشركين واليهود وغيرهم مـن أعداء الإسلام، بكفاءة وخبرة عالية، وهذه نماذج من سلوكه وتدابيره العسكريّة والأمنيّة:

١. التجسُّس العسكريّ:

ويبـدو أنّـه لم تخل معركة مـن معارك الإسلام الكـبرى، إلّا واستخـدم النبيّ ﷺ فيهـا التجسُّس العسكـريّ، وقام بجمع المعلومات عن العـدوّ، واستطلع تحرُّكاته وأوضاعه المختلفة، عن طريق العيون والطلائع وغيرهم.

فعندمـا خرج إلى بدر، بعث بسبسـة بن عمرو الجهنيّ وعديّ بن أبي الزغبـاء الجهنيّ يتجسّسان له الأخبار عن أبي سفيان وغيره.

وفي أُحُـد أرسـل ﷺ الحبّاب بن المنذر إلى القوم، فدخـل فيهم وقدّر عددهم وحجم عتادهم ونظر

إلى جميع ما يُريد، وبعثه سرّاً وقال له: لا تُخبرني بين أَحَدٍ من المسلمين إلّا أن ترى قلّة فرجع فأخبره خالياً.

وقام بهذه المهمّة حذيفة بن اليمان يوم الخندق.

كما بعث عبد الله بن حدرد عيناً على هوازن لجمع المعلومات عن موقفهم وخطّتهم في حُنَيْن، وبريدة بن الحصيب عيناً على بني المصطلق، وعبد الله بن رواحة عيناً على غطفان وغيرهم كثير.

٢. الكتمان والسرِيَّة وأمن المعلومات:

فقد كان ﷺ يُحيط تحرُّكاته العسكريّة بالسرّيّة التامّة، ويحرص على كتمان أهدافه والجهة التي يقصدها، حتّى عن المقرّبين، لئلا تتسرّب المعلومات الى العدوّ فيستفيد منها، وحرصاً منه ﷺ على تحقيق عنصر المباغتة ومفاجئة العدوّ، فعندما قرّر النبيّ ﷺ فتح مكّة أخفى نياته ولم يُطلِع المسلمين على وجهته، وقال ﷺ: «اللهمّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتّى نبغتها في بلادها»[1]

.وقد روي أنّه ﷺ كان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها.

ولم يكتف ﷺ باتّخاذ هذه الاحتياطات، بل كان يُراقب الطرق ويتّخذ إجراءات أمنيّة مشدّدة، كمنع السفر ونحوه، كما في فتح مكّة، لئلّا تتسرّب المعلومات عن تحرُّكاته العسكريّة عن طريق المنافقين والذين في قلوبهم مرض وغيرهم من أعداء الإسلام.

٣. الحرب النفسيّة:

واستخدم النبيّ ﷺ الحرب النفسيّة ضدّ العدوّ، بُغية تحطيم معنويّاته وشلّ إرادته وتفتيت وحدته الداخليّة، وبثّ الرعب والخوف واليأس في قلوب أعدائه.

فقد كان يأمر أصحابه بهجاء قريش، وقد كان يقوم بهذه المهمّة حسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وغيرهما، وكان يقول ﷺ: «اهجوا قريشاً فإنّه أشدّ عليها من رشقٍ بالنبل»[2].

وفي عمرة القضاء جاء عنه ﷺ لأصحابه: «ارملوا بالبيت ثلاثاً ليرى المشركون قوّتكم»[3]. فلما

(١) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٢٠١.

(٢) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج٧، ص١٦٤.

(٣) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج١، ص٣٧٣.

رمّلوا قالت قريش: ما وهنتهم.

وعندمـا سـار لفتح مكّة ووصل إلى مشارفهـا أمر صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه في النهار بجمـع الحطب، ولمّا دخل الليل أمرهم بالتفرُّق وإشعال النيران في كلّ مكان، ليوهم العدوّ بأنّه أمام حشد كبير لا طاقة له على مواجهتـه. حتّـى إنّ أحد أصحابه يقول: لقد كنّا تلك الليالي نوقـد خمسمائة نار حتّى تُرى من المكان البعيد، وذهب ذِكرُ معسكرنا ونيراننا في كلّ وجه حتّى كان ممّا كبت الله تعالى عدوّنا.

كمـا أنّـه صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يدخل مكّة فاتحـاً استعرض جيش المسلمين، وأمر العبّاسـ بن عبد المطّلب أن يحبسـ أبـا سفيـان في المضيق الذي تزدحـم فيه الخيل، حتّى ينظـر إلى المسلمـين وقوّتهم، فحبسه العبّاس، وجعلت القبائل المسلمة تمرّ مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كتيبة كتيبة على أبي سفيان، في أكبر استعراض للقوّة شهدته المنطقة آنذاك.

٢٢

الدرس الثاني والعشرون

الرسول القائد صلى الله عليه وآله وسلم ومستقبل الرسالة والدولة الإسلاميّة

١

الدرس الثاني والعشرون

الرسول القائد صلى الله عليه وآله وسلم ومستقبل الرسالة والدولة الإسلاميّة ١

أهداف الدرس:

١. أن يستعرض الطالب قصّة الغدير وتعيين الوصيّ عليه السلام.

٢. أن يحدِّد سبب ظهور المُتنبِّئين.

٣. أن يذكر خلفيّات التعبئة العامّة لغزو الروم.

٤. أن يُحدِّد نتيجة الحيلولة دون كتابة الوصيّة.

٥. أن يتعرّف على مَنْ لازم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في لحظاته الأخيرة.

تعيين الوصي والقيادة النائبة

أتمّ المسلمون حجّهم الأكبر وهم يحفّون بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أخذوا مناسكهم عنه، وقرّر صلى الله عليه وآله وسلم أن يعود إلى المدينة، ولمّا بلغ موكب الحجيج العظيم "رابغ" قرب "غدير خم"، وقبل أن يتفرّق الحجيج إلى بلدانهم من هذه المنطقة، نزل الوحي الإلهيّ بآية التبليغ قائلاً: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾**(١).

إنّ هذا الخطاب الإلهيّ كان يأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأمرٍ مهمّ، ويجعل على عاتقه مسؤوليّة عظيمة. فأيّ تبليغ طُلب من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنجازه وهو لم يقم به بعد، وقد أمضى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ما يُقارب من ثلاثة وعشرين عاماً يُبلّغ آيات الله وأحكامه، ويدعو الناس إلى دين الله، وقد نال ما نال من عظيم المحن والبلاء والجهد، كي يُقال له: **﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾**.

وهنا أصدر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أوامره بأنّ تقف القوافل حتّى يلحق آخرها بأوّلها، في يوم شديد الحرّ كان يضطرّ المرء فيه إلى أن يُغطّي رأسه، ويقي قدميه من شدّة حرّ الرمضاء، ليتلو عليهم أمر السماء،

---

(١) المائدة: ٦٧.

ويكمل تبليغ الرسالة الخاتمة. إنّها الحكمة الإلهيّة بأنّ يتمّ التبليغ في هذا المكان وفي هذا الظرف، كي يبقى عالقاً في وجدان الأُمّة، حيّاً في ذاكرتها على مرّ الزمن، حفاظاً على الرسالة والأُمّة الإسلاميّة.

وجُمعت الرحال وصعد عليها النبيّ ﷺ بعد أن صلّى في جموع المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه وقال بصوت رفيع يسمعه كلّ من حضر[٢]: «أيّها الناس يوشك أن أُدعى فأجيب، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنّك بلّغت ونصحت وجاهدت فجزاك الله خيراً. قال ﷺ: ألستم تشهدون أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وأنّ جنّته حقّ وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك قال ﷺ: اللهمّ اشهد.

ثمّ قال ﷺ: فإنّي فرطكم على الحوض وأنتم واردون عليّ الحوض، وإنّ عرضه ما بين صنعاء وبُصرى، فيه أقداح عدد النجوم من فضّة، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين.

فنادى منادٍ: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال ﷺ: الثقل الأكبر كتاب الله، طرف بيد الله عزّ وجلّ، وطرف بأيديكم فتمسّكوا به لا تضلّوا. والآخر الأصغر عترتي. وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تُقصّروا عنهما فتهلكوا.

ثمّ أخذ بيد الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام حتّى رُئي بياض إبطيهما، وعرفه الناس أجمعون.

فقال ﷺ: "أيّها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه - يقولها ثلاث مرات -".

ثمّ قال ﷺ: "اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه، وأحبّ من أحبّه وابغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله وأدرِ الحقّ معه حيث دار، ألا فليبلّغ الشاهد الغائب".

ثمّ لم يتفرّقوا حتّى نزل أمين وحي الله بقوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾[٣]، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة، ورضى الربّ برسالتي والولاية لعليّ بعدي».

---

(٢) ينقل خصوصيّة لتلك البقعة من الأرض، أنّ الصوت يسمع على بُعد مسافة حتى لو كان همساً.

(٣) المائدة٣.

ثمّ أمر صلى الله عليه وآله وسلم أن تُنصب خيمة لعليّ عليه السلام، وأن يدخل عليه المسلمون فوجاً فوجاً، ليُسلِّموا عليه بإمرة المؤمنين، ففعل الناس ذلك كلّهم، وأمر أزواجه وسائر نساء المؤمنين ممّن معه أن يفعلن ذلك.

وكان في مقدّمة المهنّئين أبو بكر وعمر بن الخطّاب، كلٌّ يقول: بخٍ بخٍ لك يا ابن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة [1].

تفرّقت جموع الحجيج من غدير خمّ نحو العراق والشام واليمن، ويمّم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأصحابه صوب المدينة. وحمل الجميع وصيّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالقيادة النائبة، لتستمرّ حركة الرسالة الإسلاميّة بنهجٍ يتعمّق في النفوس، وتجتاز العقبات بعد أن يرحل عنها صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم، ويكون قد عيّن لصيانة رسالته وقيادة أُمّته شخصاً نموذجيّاً في حمل هموم الرسالة، والحرص على نجاحها، لا تأخذه في الله لومة لائم ولم يُشرك بالله طرفة عين.

ظهور المتنبّئين

بعد أن انبسط سلطان الدين الإلهيّ في ربوع الجزيرة وما حاذاها، وانحازت القبائل جميعاً إلى دولة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لِمَا رأوه من العزّة والاستقلال الذي اكتسبوه في ظلال دولته المباركة، ولِمَا لاحظوه من حرصه على أن يكون خليفته في أُمّته ودولته، والقائم على شؤون رسالته من اعتبره القرآن الكريم نفس الرسول العظيم صلى الله عليه وآله وسلم [2]، فمن الطبيعيّ جدّاً للنفوس السليمة بفطرتها أن تُخلِص الولاء لهذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ودولته الفتيّة.

ولم يَعُد ذا بالٍ أن يتمرّد بعض العرب ويرتدّ عن ولائه السياسيّ بل العقيديّ وهو يرى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سلطاناً وحاكماً مُتنفِّذاً ليس إلّا، كما كان أبو سفيان يرى النبيّ كذلك.

غير أنّ الأذكياء من هؤلاء كانوا يرون صلاحهم في الخضوع لهذا الكيان الجديد، وكانوا يُخطِّطون للنفوذ إلى مراكز القوّة في الدولة الجديدة، والأغبياء منهم بدؤوا التمرّد على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم طالبين منه أن يُقسِّم سلطانه.

---

(١) راجع تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص١١٢؛ مسند أحمد، ج٤، ص٢٨١؛ البداية والنهاية، ج٥، ص٢١٣؛ موسوعة الغدير، ج١، ص٤٣، ١٦٥، ١٩٦، ٢١٥، ٢٣٠، ٢٣٨، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٧، ٣٧٩، ٣٩٢، ٤٠٢، وج١١، ص١٣١.

(٢) ٥راجع آية المباهلة وقصّتها في الدروس السابقة.

إنّ الطمع في الشرف الذي نالته قريش يوم أصبح منها محمّد ﷺ نبيّاً – كما ظنّ الجاهلون – كان ممّـا دفع بعضهم لأن يدّعي النبوّة، فهـذا "مسيلمة" يكتب للنبيّ ﷺ ويدّعي النبوّة ليُشارك النبيّ ﷺ في سلطان الأرض، ولمّا وقف النبيّ ﷺ على مضمون الرسالة التفت إلى من حملها إليه وقال: "لولا أنّ الرسل لا تُقتَل، لضربت أعناقكما لأنّكما أسلمتما من قبل وقبلتما برسالتي، فلِمَ اتّبعتما هذا الأحمق وتركتما دينكما؟".

ثـمّ ردّ علـى مسيلمة الكذّاب برسالة بعثهـا إليه، جاء فيها: "بِسْـمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمّد رسول اللّه إلى مسيلمة الكذّاب. السلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد فإنّ الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين"[٣].

(٣) ٦– ابن هشام، السيرة النبويّة، ج٢، ص٦٠٠.

٢٣

الدرس الثالث والعشرون

الرسول القائد صلى الله عليه وآله وسلم ومستقبل الرسالة والدولة الإسلاميّة

٢

الدرس الثالث والعشرون

الرسول القائد صلى الله عليه وآله وسلم ومستقبل الرسالة والدولة الإسلاميّة ٢

التعبئة العامّة لغزو الروم(١)

أبدى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم اهتماماً كبيراً للحدود الشماليّة للدولة الإسلاميّة، حيث دولة الروم المنظَّمة وصاحبة الجيش القويّ. وأمّا فارس فلم تكن ذات أثر مُقلق؛ لأنّ علامات الانهيار كانت قد بدت عليها، كما أنّها لم تكن تمتلك عقيدة روحيّة تدافع عنها كالمسيحيّة لدى الروم.

على أنّ بعض عناصر الشغب والنفاق كانت قد أُجليت عن الدولة الإسلاميّة، فاتّجهت إلى الشام، وكان وجود نصارى نجران في الجنوب أيضاً عاملاً سياسيّاً يدفع الروم لنصرتهم.

وكلّ هذه لم تكن عوامل آنيّة عاجلة تستدعي الاهتمام الكبير، الذي ظهر واضحاً من إعداد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لجيش كبير يضمّ كبار الصحابة ما خلا عليّاً وبعض المُخلِصين معه.

من هنا يظهر أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يُريد أن يخلو الجوّ السياسيّ من أحداث تُعيق استلام وصيّه الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام زمام السلطة من بعده، بعد أن لمس تحسُّساً وانزعاجاً من بعض الأطراف، لتأكيده المستمرّ على مرجعيّة الإمام عليّ عليه السلام لإتمام مسيرة الرسالة الإسلاميّة، فأراد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن تخلو المدينة من أيّ توتّر سياسيّ ليتمّ للإمام عليّ عليه السلام ما خطّط صلى الله عليه وآله وسلم من استلام مقاليد الخلافة من بعده، ولهذا عقد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لواء المسلمين وسلّمه إلى "أُسامة بن زيد" القائد الشاب الذي نصّبه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مغزى واضح وإشارة بليغة إلى أهمّيّة الكفاءة في القيادة، وجعل تحت إمرته شيوخ الأنصار والمهاجرين، وقال صلى الله عليه وآله وسلم له: "سِر إلى موضع قتل أبيك، فأوطئهم الخيل فقد ولّيتك هذا الجيش، فاغزُ صباحاً وشنّ الغارة...".

---

(١) عقد النبي صلى الله عليه وآله وسلم اللواء لأُسامة في صفر عام ١١هـ.

ولكنّ روح التمرُّد وقلّة الانضباط التي كانت تبدر من بعض المسلمين أخذت تعترض على التسليم لأمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولعلّها كانت جاهلة بالأهداف والمصالح العليا للإسلام والتي قد عناها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وهو المعصوم المُسدَّد من قبل الله سبحانه.

وبلغ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ذلك فغضب وخرج وهو يلتحف قطيفة، وقد عصَّبَ جبهته بعصابة من ألم الحمّى التي أصابته، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أمّا بعد، أيّها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أُسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أُسامة فقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيم الله كان للإمارة خليقاً وإنّ ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحبّ الناس إلي وأنهما لمخيلات لكل خير[٢]، واستوصوا به خيرا فإنه من خياركم»[٣].

اشتداد المرض بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم

واشتدّت الحمّى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يشغله ثقل المرض عن الاهتمام الكبير منه لخروج الجيش، فكان يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «أنفذوا جيش أُسامة»[٤] لكلّ من يعوده من أصحابه ويزيد إصراراً بقوله: «جهّزوا جيش أُسامة لعن الله من تخلّف عنه»[٥]. وأوصل بعض المسلمين أنباء تردّي صحّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى معسكر المسلمين في «الجرف» فرجع أُسامة يعود النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فحثّه على المضيّ نحو هدفه الذي رسمه له قائلاً له: «أُغدُ على بركة الله».

فعاد أُسامة مُسرِعاً إلى جيشه يحثّه على الخروج، ولكنّ المتقاعسين وذوي الأطماع في الخلافة تمكّنوا من عرقلة مسيرة الجيش، زاعمين أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يحتضر، بالرغم من إصرار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على التعجيل في المسير وعدم التخلُّف عنه.

---

(٢) بمعنى أنّهما ممن يتفرّس فيهما كلّ خير. والخوليّ: هو الراعي الحسن القيام على المال. راجع المنجد مادّة خلل.

(٣) الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٣٦.

(٤) م.ن، ج٢، ص١٣٧.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص٢٣.

الحيلولة دون كتابة الوصيّة

ورغـم ثقـل الحمّى وألم المرض خرج النبيّ ﷺ مستنداً إلى الإمام عليّ عليه السلام والفضل بن العبّاس، ليُصلّي بالناس وليقطع بذلك الطريق على الوصوليّين، كي لا يتخّذوها حجّة ويقتنصوا الزعامة التي طمحوا لها من قبل، وقد عصوا الرسول ﷺ وتخلّفوا عن أمره بالخروج مع جيش أُسامة.

وحـين أتمّ الصـلاة التفت ﷺ إلى الناس قائلاً: «أيّها الناس سُعِّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإنّي والله ما تُمسِكون عليّ بشيء، إنّي لم أُحلّ إلّا ما أحلّ الله، ولم أُحرِّم إلّا ما حرّم الله»[1].
فأطلـق ﷺ بقوله هـذا تحذيراً آخر أن لا يعصوه وإن لاحت في الأُفـق نواياهم السيّئة التي ستجلب الويلات على الأُمّة إذ يتزعّمها جهّالها.
واشتـدّ المرض على النبـيّ ﷺ واجتمع الصحابة في داره، ولحق بهم مـن تخلّف عن جيش أُسامة، فلامهـم النبـيّ ﷺ واعتذروا بأعذار واهية. وحاول النبيّ ﷺ أن يُعرقـل المؤامرة السياسيّة التي كان يتوقّعهـا من بعد وفاته، فقـال ﷺ للحاضرين عنده: «إيتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده».
فقال عمر بن الخطاب: «إنّ رسول الله قد غلبه الوجع[2] وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله».
ووقع التنازع والاختلاف، وقالت النسوة من وراء الحجاب: إئتوا رسول الله ﷺ بحاجته. فقال عمر: اسكتن فإنّكن صويحبات يوسف، إذا مرض عصرتنّ أعينكنّ وإذا صحّ أخذتنّ بعنقه، فقال رسول الله ﷺ: «هنّ خير منكم» [3]. ثمّ قال ﷺ: «قوموا عنّي لا ينبغي عندي التنازع».
وكـم كانـت الأُمّة بحاجة ماسّة لكتاب الرسـول ﷺ هذا، حتّى أنّ ابن عبّاسـ كان يأسف كلمّا كان يذكر ذلك ويقول: «الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله» [4].

ولم يُصرّ نبيّ الرحمة ﷺ على الكتاب بعد اختلافهم عنده، خوفاً من تماديهم في الإساءة ونكرانهم لمـا هو أكبر، فقد علم ﷺ بما في نفوسهم، وحين راجعوه ثانية بشأن الكتاب قال ﷺ: «أَبَعْدَ الذي

(١) السيرة النبويّة، ج٢، ص٦٥٤؛ الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢١٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم، وكتاب الجهاد، باب جوائز الوفد، ج١، ص٣٧.

(٣) الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٤٤؛ كنز العمال، ج٣، ص١٣٨.

(٤) صحيح البخاري كتاب العلم، ج١، ص٢٢، وج٢، ص١٤؛ الملل والنحل، ج١، ص٢٢؛ الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٤٤.

قلتـم ؟!»[٥] وأوصاهم بثلاث وصايا تذكر بعض كتـب التأريخ اثنتين منها وهما: إخراج المشركين من جزيرة العرب، وإجازة الوفد كما كان يُجيزهم، وتزعم هذه الكتب نسيان الثالثة.

وعلّـق السيّـد محسن الأمين على ذلك قائلاً: والمُتأمِّل لا يكاد يشكّ في أنّ الثالثة سكت عنها المُحدِّثون عمـداً لا نسيانـاً، وأنّ السياسـة اضطرّتهم إلى السكـوت عنها عمداً وتناسيهـا، وأنّها هي التي طلب الدواة والكتف ليكتبها لهم [٦].

اللحظات الأخيرة من عمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

وأقبلـت السيّـدة الزهراء عليها السلام وهي تجرّ أذيالها بحزن، وتتطلّـع إلى أبيها وهو يوشك أن يلتحق بربّه، فجلست عنده مُنكسِرة القلب دامعة العين، ودنت منه فأخبرها صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قد حضر أجله، وأنّه يُقبض في وجعه هذا، فبكت عليها السلام، ثمّ ما لبثت أن تلقّت البشرى منه صلى الله عليه وآله وسلم بأنّها ستكون أوّل أهله لحوقاً به[٧]. وكان الإمـام علـيّ عليه السلام يُلازم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كظلّه، حتّى آخر لحظـات حياته الشريفة، وهو يوصيه ويُعلِّمه ويضع سرّه عنده.

نعـم، في الساعـة الأخـيرة قال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ادعـوا لي أخي"، وكان صلى الله عليه وآله وسلم قـد بعثه في حاجة فجـاءه بعضـ المسلمين فلم يعبأ بهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حتّى جاء الإمام عليّ عليه السلام فقال صلى الله عليه وآله وسلم له: "أُدنُ منِّـي". فدنـا الإمام عليه السلام فاستند إليه، فلم يزل مستنداً إليـه يُكلِّمه حتى بدت عليه صلى الله عليه وآله وسلم علامات الاحتضـار[٨]. وتـوفّي رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في حِجْر الإمـام عليّ عليه السلام كما قد صـرّح بذلك الإمام عليه السلام نفسه في إحدى خطبه الشهيرة [٩].

---

(٥) المجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٢٢، ص٤٦٩.

(٦) الأمين، السيّد محسن، أعيان الشيعة، ج١، ص٢٩٤.

(٧) الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٤٧؛ الكامل في التاريخ، ج٢، ص٢١٩.

(٨) م.ن. ج٢، ص٢٦٣.

(٩) نهج البلاغة، خطبة ١٩٧.

خلاصة الدرس

- أتمّ المسلمـون حجّهم الأكبر وهـم يحفّون بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقبل أن يتفرّقـوا إلى بلدانهم وفي غدير خمّ ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ..﴾[1]

فوقـف صلى الله عليه وآله وسلم خطيباً بهم آخذاً بيـد الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام قائلاً: «... فمن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه...».

فنزل الوحي من الله بقوله تعالى: ﴿....**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**....﴾[2]

ثـمّ بايـع الجميع عليّاً عليه السلام بإمرة المؤمنين وخلافة النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم وكان في مقدّمتهم أبو بكر وعمر بن الخطاب.

- وبعد انبساط السلطان الإلهيّ انضمّ جمع كبير من الناس إلى صفوف المسلمين وخضع من أضمر النفاق لهذا السلطان أيساً من التمرّد عليه، وادّعى بعض النبوّة كمسيلمة الكذّاب.
- – أبـدى النبيّ اهتماماً كبيراً للحدود الشماليّة مـع دولة الروم، لما تشكّله من خطر، فأنفذ صلى الله عليه وآله وسلم جيشـاً كبـيراً ضمّنه كبار وجوه الصحابة بقيادة أسامة بن زيـد، لمواجهة هذا الخطر ولكي يخلو الجوّ السياسيّ من أحداث تُعيق استلام وصيّة الإمام عليّ عليه السلام زمام السلطة بعد أن اشتدّ منه صلى الله عليه وآله وسلم المرض.
- ولكـنّ روح التمـرّد بدت من بعض المسلمين منعـت انفاذ ذلك الجيش، وحالـت دون كتابة وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.
- ثـمّ ما لبـث صلى الله عليه وآله وسلم إلّا قليلاً حتّى غـادر الدنيا الفانية بين يـدي وصيّه الإمام علـيّ بن أبي طالب عليه السلام.

(١) المائدة:٦٧.

(٢) المائدة:٣.

للمطالعة

سلوكه القيادي

كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عظيماً في أخلاقه الشخصيّة والاجتماعيّة، فقد كان عظيماً في خُلُقه السياسيّ كرجل دولة..

وهذه بعض ملامح سلوكه القياديّ وأخلاقه السياسيّة:

أ. العدل والتدبير: فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم عادلاً حكيماً مُدبِّراً، وقد روى الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُقسِّم صدقة أهل البوادي في أهل البوادي، وصدقة أهل الحضر في أهل الحضر»[٣].

واستطاع بحكمته وتدبيره الحدّ من العداوات والأحقاد والبغضاء والحروب التي كانت سائدة بين القبائل.

ب. حماية القوانين: فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم حريصاً على حفظ النظام العامّ، ورعاية التشريعات الإسلاميّة وحمايتها وعدم مخالفتها. ولم يُجامِل أحداً فيما يعني تطبيق الشريعة وإنزال العقوبة بالمُذنِب كائناً من كان.

ففي فتح مكّة ارتكبت امرأة من بني مخزوم جريمة السرقة، وثبتت السرقة عليها من الوجهة القضائيّة، لكنّ قومها الذين كانت الترسُّبات القبليّة ما تزال تعشّش في أدمغتهم، رأوا أنّ إنزال العقاب بها يخدش مكانتهم ويُلحق العار بشرفهم، فبذلوا جهدهم وتوسّطوا لعلّهم يستطيعون رفع العقاب عنها، وأرسلوا أسامة بن زيد- الذي كان موضع احترام عند النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مثل أبيه - وسيطاً يتشفّع لها عند النبيّ، فغضب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: «ما هذا محلّ شفاعة»، وأصدر أمره صلى الله عليه وآله وسلم بإنزال العقوبة بها وإجراء حدود الله.

ولكي يُزيل عن أذهان الناس فكرة المحاباة في تطبيق التشريع وإقامة حدود الله، خطب صلى الله عليه وآله وسلم في الناس ذلك اليوم مُشيراً إلى هذه الحادثة، ذاكراً أنّ الأقوام والأمم السابقة قد بادت وانقرضت لأنّها لم تعدل في إجراء الحدود، فعندما كان أحد أفراد الطبقات العليا يرتكب جُرماً كان يُعفى

(٣) الكليني، الكافي ج٣، ص ٥٥٤.

مـن العقاب، وإذا ارتكـب أحد أفراد الطبقة الدنيا جريمة مماثلة عوقـب عليها، ثمّ أقسم أنّه ﷺ لا يتساهـل في إجـراء حـدود الله حتّى علـى أقرب المقرّبين إليـه. ولم يكن يرى نفسـه ﷺ أنّه فوق التشريع، بل إنّه التزم وطبّق بدقّة ما ألزم به المجتمع..

ج. الالتزام بالعهود والمواثيق: فلم يحدث إطلاقاً أن أخلّ ﷺ بعهوده التي أبرمها مع أعدائه، وقد أخلّت قريش بعهدها معه، وأخلّ اليهود بعهودهم ومواثيقهم، ولكنّه لم يُخلّ أبداً بعهده معهم.

د. الالتـزام بمبـدأ احـترام الآخريـن: وهو المبدأ الخُلُقـيّ الذي اتّبعه النبـيّ ﷺ مع زعماء الدول الذين لم يكونوا على دينه، ففي الرسائل التي بعث بها الرسول الأعظم ﷺ إلى زعماء العالم آنـذاك، نجـد أنّ النبيّ ﷺ رغـم تصلُّبه وتشـدُّده في ذات الله، قد طبّق مبدأ الاحـترام مع هؤلاء عندما خاطب كسرى بعظيم فارس وقيصر بعظيم الروم، وذلك من أجل أن يكشف لهم أنّ الإسلام هو الدين الذي جمع كلّ المبادىء السامية والقيم الأخلاقيّة.

هـ. بُعدُ النظـر: إنّ الدارس لسيرة الرسول ﷺ يرى أنّ الله تعالى أعطـاه من بُعدِ النظرِ ما لم يُعطِ غيره. لقد رأينا بُعدَ نظره يوم وضعت قريشٌ الشروط لصلح الحديبية، فقد رأى بعض أصحابه أنّ في هـذه الشـروط إجحافـاً بالمسلمـين، ورأى فيها رسـولُ الله ﷺ ـ بما آتاه الله مـن بُعدِ النظر ـ النصـرَ للمسلمـين، ورأى أنّ قريشـاً بوضعِها هذه الشـروط إنما تحفُرُ قبْرَها بيدهـا، وتكتب دمارَ أطروحتها بقلمها.

ورأينا بُعْدَ نظره في تألُّفه عبد الله بن أبيّ بن سلول ـ وكان ذا شوكة ـ يوم قَيْنُقاع ويوم بني النضير ويوم بني المصطلق، وبقي رسولُ الله ﷺ يتألّفه حتّى انكشف نفاقُه، وظهرت عداوته للإسلام والمسلمين، فجعـل قومه بعد ذلـك إذا أساءَ الإساءة هُمُ الذين يعاتبونه ويأخذونـه ويعنِّفونه، وعندها قال رسول الله ﷺ لعمـر بـن الخطـاب: "كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتُه يوم قلـت لي: اقتله، لأُرعِدَتْ له أُنـفٌ. لـو أمرتُها اليوم بقتلـه لقتَلَته، فقال عمر: قد ـ والله ـ علمتُ أنّ أمـر رسولِ الله أعظم بركة من أمري".